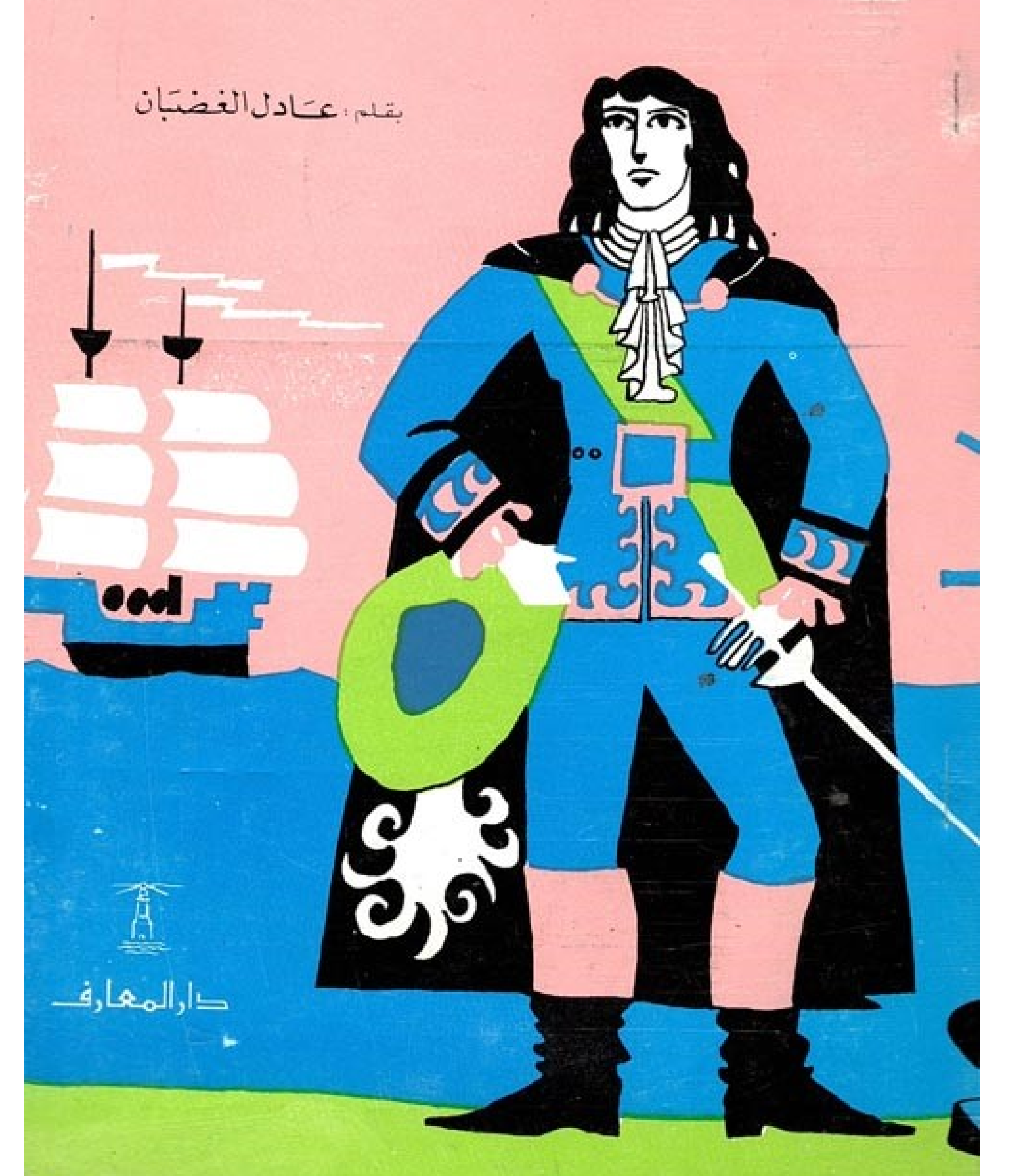
أولادنا

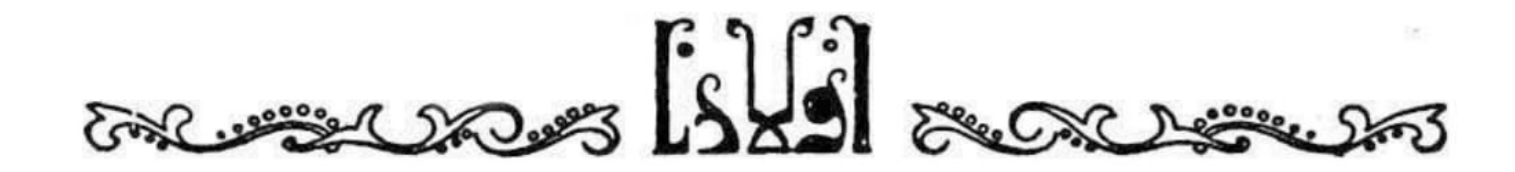
الربان بلود

بقلم : عادل الغضبان



دار المعارف

الربـان بـلود



١٨

الربــان بلود

بقــلم : عَادل الغضـــبَان

الطبعة الخامسة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



١

وقف الطَّبيب «بلود» أمام النَّافذة يَسْقي آنِية الأزهار، وكانت نظراته موزّعة بين رياحينه وأزهاره، وبين الجموع الزاخرة التي تمرّ بمنزله في طريقها إلى قصر «فيلد».

وكانت تلك الجماهير الثَّائرة المتحمِّسة، مسلّحة بمختلف أنواع السِّلاح، فمن سيوفٍ إلى عصيّ إلى رماح إلى فؤوس، وكان كلٌّ من أولئك المسلَّحين ما بين حائك وصانع ونجَّارٍ وَبنَّاء وَبدّال، قد انضمَّ إلى حركة الثَّورة إلاّ المرضى والضِّعاف أو الذينَ عدَّهم إخوانهم خَوَنة جُبَناء.

رأى الطّبيب «بلود هؤلاء الناس الرَّاكضين المسرعين فقال في نفسه:

— «إنّهم يسعَوْن إلى هلاكهم!»

وكان طبيبنا «بلود» هذا، قد قرأ أمْس المنشورَ الذي أذاعه الدّوق «مونماوث» الابن غير الشرعيّ للملك «شارل الثّاني» مطالبًا فيه بعرش أبيه، ذلك العرش الذي استولى عليه «جاك الثاني» شقيق الملك المتوفّى واسْتَوى عليه. وكان يعرف كذلك أن الدّوق «مونمارث» ينْوي أن يُهاجم في تلك اللّيلة جيش الملك بهؤلاء الناس الثّائرين المتمرّدين، فما وَسِعَه إلا أن يرثي لهم ويندب مصيرهم.

والطّبيب «بلود» كان من القوّة والبأس والإجادة في مُلاعبة السّلاح بمقام عظيم، ولكنّه كان متعجرفًا خامدَ الحماسة، لا يندفع في سبيل الدفاع عن الحق والحرّية والدين، إلى ما تندفعُ إليه الجماهير دون تبصُّرٍ ولا رويَّةٍ.

ولَمَّا فرغ من سقْي الأزهار، رفع رأسه وهَمَّ بإغلاق النافذة، فوقع بصرُه على الأختين «بت» القاطنتين في المنزل المقابلِ لمنزله، فرآهما تَحْدِجانِه بنظرات الزِّراية والاحتقار، فابتسم وانْحَنى مسلِّمًا، وفَهِمَ أنَّهما تلومانه صامتتين، على أنَّه تخلَّف عن ركْبِ الثورة، وهو الرّجل الشّاب القويّ المتمرّس بحمْل السِّلاح.

أغْلقَ الطبيب النّافذة، ورجع عنها غيرَ حافل بتلك النَّظرات، فرأى مدبّرة المنزل قد أوقدت الشموع في الغرفة، وبدأت تُعِدّ المائدة لطعام

العشاء، فقال بصوتٍ عالٍ:

– «إنّ هاتين الببّغاوَيْن تنظران إلىّ شَزْرًا؟!»

قال هذا بصوتِ مَنْ تعوَّد الأمر والنهي، على أنّ لهجته الإرلندية الحلوة الخفيفة، قد رقَّقت قليلاً من قَسْوة ذلك الصّوت...

كان «بلود» ابنًا لطبيب إرلندي وأمٍّ إنجليزية، وكان أبوه قد قرّر له أن يدرس الطب، فلمّا أكمل دراسته، ونال الشهادة وهو في العشرين من عمره، كانت أمُّه قد توفِّيت منذ عدّة سنوات، ثم لحق بها أبوه بعد أشهر ثلاثة من تخرُّج الفتى وإتمام دراسته.

تسلّم «بلود» ميراثه، وكان عدّة مئاتٍ من الجنيهات، فاستسلم إلى طبيعته المغامرة، وقاده حبُّه للبحر إلى أن ينتظمَ في خدمة الهولنديِّين، وكانوا إذ ذاك في حربٍ طاحنة مع الفرنسيين، فاشترك في المعارك البحرية التي نشبت بين الفريقين.

وبعد أن عقد الصّلح بين الدّولتين، اكتنف حياةَ «بلود» شئٌ من الغموض فما عُرِفَ عنه إلا أنه قضى سنتين في سجن من سجون إسبانيا..

وعندما بلغ الثانية والثلاثين من العمر، خمدت فيه حماستهُ المغامرة، ووضع عصا التّسْيار في إنجلترا بلد أمّه، وقرَّر أن يعيش فيه.

هبط إنجلترا في شهر يناير سنة ١٦٨٥ وهو صاحب ثروةٍ متواضعة، وعاش في لنن يزاول مهنة الطبّ، حتى كانت تلك الليلة من شهر يونيو

وقد التهبت الصُّدور بنيران الثورة، ومشى فيها الدوق «مونماوث» على رأس الثّوار، وشنَّ الهجوم على جيش الملك.

ولم يكترث «بلود» للثورة، فأوى إلى فراشه مبكّرًا في تلك الليلة، ونامَ نومًا عميقًا لم يوقظه منه دويُّ المدافع، وإنما أيقظه في نحو الساعة الرابعة من الصباح، طرقٌ عنيفٌ على باب منزله.

خَفَّ «بلود» إلى الباب ففتحه، فرأى شابًّا في ثياب ممزّقة وهو يلهثُ من التّعب، وعرف فيه نسيب الأختين «بت» فقال «بلود» في صوتٍ هادئ رزين:

- «تمهّلْ يا فتى وأخْبرني ماذا تريد؟»

فقال الشابّ وهو لا يزال يلهث:

- « «اللورد جِلْدُوي» جريحٌ جُرْحًا بالغًا، وهو في مزرعةٍ قريبةٍ من هنا وقد أرسلني أستدعيك إليه... فتعال يا سيِّدي أسرع... أسرع...»

وساء «بلود» أن يعلم ذلك النبأ، فاللورد الجريح كان قد عطف عليه ورعاه منذ نزل بإنجلترا، فلابد أن يسارع إلى نجدته ومداواته، والوفاء ببعض ماله من دينٍ عليه، وإن يكن ذلك اللورد من أشدّ أنصار الدّوق «مونماوث» حماسَة وإخلاصًا.

واستمهل «بلود» الشابّ قليلاً، فلبس ثيابه، وزوّد مدبّرة منزله

بالأوامر، وأخذ حقيبته ثم خرج من المنزل. وكان الشّابّ قد سبقه إلى الباب، فرآه قد أحاطت به نساءُ الحيّ، وأخذت الأسئلة تنهال عليه، فعلم «بلود» من ذلك الجزع المرتسم على الوجوه، أنّ الدّوق «مونماوث» قد خسر المعركة.

وقفز الشابّ إلى جواده، وأَرْدَفَ الطبيب وراءه، وأعمل قدميه في شاكِلتي الجواد، ففسح الجمهورُ لهما الطريق، وطار الجواد يحمل الطبيب «بلود» إلى عالم جديد من الأحداث والمغامرات...

كان «بلود» في أثناء سيره إلى اللورد الجريح، يشاهد بعض الفُلول من جيش الثوّار تجري عائدةً إلى المدينة، وتلتفت إلى الوراء من حين إلى حين لتطمئن إلى أن جنود الملك لا تتعقّبها...

وبعد قيل وصل «بلود» إلى الجريح، وحدّق فيه طويلاً، ورثى لذلك الفتى النبيل الذي كان يفقد الحياة في سبيل رجل أحمقَ مُغامر، ثم أقبل على الجريح يفحصه فحصًا دقيقًا، فلما انتهى من فحصه، سقاه بعض الشّراب المنعش وأخذ يضمّد له الجرح.

وبينما هو منكبٌّ على الجريح، سُمع في الخارج وَقْعُ حوافرِ خيل، فاضطرب كلٌّ من كان في الغرفة حول سرير المريض إلا «بلود» فقد استمَرّ في عمله وهو يقول للورد الجريح:

– «صبرك قليلاً يا سيّدي اللورد فأكادُ أَفْرَغُ من عملي».

ودخل الغرفة على الأثر عشرةٌ من الجنود، يتقدّمهم رئيسهم فقال لصاحب المزرعة وكفه على مقبضِ سيفه! :

- «أرى أنك تؤوي الثوّار في مزرعتك...»

ثم التفت الضابط إلى جنوده وقال:

- «اقبضوا على الثّائر الجريح».

وكان «بلود» قد فرغ من تضميدِ الجرح، فنهض ووقف بين الجريح والجنود وقال:

- «إن الجريح في حالٍ خطرة ولا يمكن نقله.»

فقال الضّابط متهكمًا:

- «أتظن يا هذا أننا سننقل هذا الثائر الجريح لنحسِّن حاله؟ متى كانت حياةُ الثوّار على مثل هذه القيمة والنفاسة؟ إن طريقنا مزدحمٌ بالمشانق، وعندي من الأوامر ما يجعلني أهدي لكلِّ ثائرٍ حَبلاً ألفُّه حول عنقه...»

فصاح «بلود» قائلاً:

- «أتشنقون الناس بغير محاكمة؟!»

- «ومن تكون أيُّها الرجل؟»

- «اسمي «بطرس بلود».»

- «وماذا تعمل هنا؟»



- «إني طبيب، وقد استدعيتُ لأعْنَى بهذا الجريح.»

- «ها. ها. أنت أيضًا طبيب... تُخْفِي جُرْمَ التمرد والعصيان تحت مُسُوح الطب... إن المشنقة في انتظارك يا هذا.»

- «أرى أن لك كلّ الصِّفات التي تجعل منك جَلاَّدًا ممتازًا، ولكن حَذارِ على عنقك، فهذا الجريح ليس ممَّن يُشنق في يُسرٍ وسهولة، فهو لورد ومن حقّه أن يحاكمه مجلس اللوردات...»

فاضطرب الضّابط قيلاً وقال:

- «مجلس اللوردات؟!»

- «نعم. إن هذا الجريح هو اللورد «جلدوي». «

فقال الضابط لجنوده مفكرًا مهمومًا:

- «كيفما كانت الحال فمهمّتنا القبضُ على الثوّار، فانقلوا هذا الجريح مستلقيًا على سريره، وأوصلوه إلى سجن العاصمة، وسأرفع أمره إلى القيادة العليا.»

ومَدّ الجريحُ يده إلى «بلود» وقال له بصوت ضعيف:

- «أشكرك يا سيّدي... لقد طوّقْتَ عُنُقِي بجميلك... فإن كتبتْ لي الحياة فسوف أجتهد في أن أفي بحقّ جميلك عليّ...»

ونفّذَ فريقٌ من الجنود أوامر الضّابط، فنقلوا الجريح وهو مستلقٍ إلى سريره، ثم أصدر إلى بقية جنودة الأمر بالقبض على صاحب المزرعة

والشاب نسيب الأختين «بت» وعلى الطبيب «بلود».

وحاول الطبيب أن يقاوم ذلك الأمر فلم يُفْلِح، فقد انقضَّ الجنود عليه وطرحوه أرْضًا، وأوثقوا يديه وراء ظهره، ثم أنهضوه وركب الجنود جِيادهم، وربطوا كلاًّ من هؤلاء الثلاثة إلى رِكاب أحد الجند، وسارت القافلة بهؤلاء المساكين.

وفي ذلك الصّباح من شهر يونيو الجميل، وعلى مرأى من أشجار التّفاح التي تنوء في تلك المزرعة بالثّمار، كان «بلود» يفكّر في أنّ الإنسان هو ألأم مخلوقات الله، وأنّ المعتوه المجنون هو الذي يَقِفْ حياته على مداواة ذلك الدّنيّ الحقير...



٢

بعد شهرين من اعتقال الطبيب «بلود»، وعلى وجه التّخصيص في التّاسع عشر من شهر سبتمبر، بدأت محاكمته بتّهمة الخيانة العُظْمى.

وكان الرّجلُ كما نعلم بريئًا من تلك التّهمة، فَلَقِي من العذاب والاضطهاد ما أثار في نفس الحقد والبغضاء على الملك «جاك». ولكنّه وهو البريئ قد سرّه أنهم لم يشنقوه بدون محاكمة، وأنّ المحاكمة قد جرت في التاسع عشر من سبتمبر.

ويوم قادوه إلى المحكمة قادوا معه كثيرًا من المعتقلين الأشقياء البائسين، بعد أن ربطوهم اثنين اثنين، وساقوهم سَوْقض النَّعم، فمن تعثَّر منهم ألهبوا

ظهره بالسِّياط، وأجبروه على السَّيْر، أو رَموْه وهو مثخَنٌ بالجراح في عربة فلفظ فيها أنفاسه.

وكثيرًا ما حاول الطّبيب «بلود» أن يُعْني بهؤلاء الجَرحَى المساكين، ويبذل لهم ما يستطيعُ من معونة، فكان الحرس يمنعونه من مزاولة فنّ الطب.

وكان ذلك الشّابّ الذي جَرّ عليه البلاء والوبال زميله في القيد وسميره وجليسه طول مدّة الاعتقال.

ولقد علم الثّوار من أحاديث الحرّاس، أن الثورة قد أخفقتْ، وأنّ الدوق «مونماوث» قد شُنِق، وأنّ أنصاره قد يئسوا فتفرقوا، وأنّ اللورد «جراي» قد خلفه على زعامة الثورة، ولكنه اشترى العفو عنه بمبلغ أربعين ألف جنيه...

وكان «بلود» يسمع هذه الأحايث فلا يحفل بها، ولكنه ثار في آخر الأمر ثورةً عنيفة على هؤلاء السادة النبلاء، ومنهم اللورد «جلدوي» الذي ذهب يعالجه ويداويه، فقد اشتروا الصَّفْع عنهم بمبالغ من المال، في حين كانت المشانق هى الجزية التي دفعها الثوّار البائسون.

غصَّت المقاعد والأروقة في قاعة المحكمة بالمتفرّجين، ودخلت هيئة المحكمة بأعضائها الخمسة ومحلّفيها الاثنى عشر، واستَووْا في أمكنتهم فخيَّم على الحضور الصَّمت والرّهبة والسكون، ثم قطع ذلك الصَّمت صوتٌ أجشّ يقول:

– «ارْفَعْ يدك يا «بطرس بلود».»

فرفع «بلود» يده بحركةَ عفْويَّة، فقرأ محامي التاج ورقة الاتهام، فإذا هى تتَّهم «بلود» بالخيانة العظمى.

وكان «بلود» في هذه الأثناء يحدِّق في رئيس المحكمة، وينظرُ إليه نظرَة الطبيب الفاحص، فبدا له أن الرجل مصابٌ بمرض عُضال. فلما انتهى محامي التاج من تلاوة ورقة الاتهام، وسُئِل «بلود» حسب التقاليد أهو مُذْنبٌ أم غيرُ مذنب قال:

– «إنِّي برىء...»

ولم يَرْضَ محامي التّاج بهذا الجواب، وأصَرَ على أن يجيب المتّهم الإجابة التقليدية المعروفة، أهو مُذْنب أم غير مذنب. فقال «بلود»:

– «غير مُذنِب.»

وسُئِلَ صاحبُ المزرعة هذا السؤال أيضًا فقال إنّه غير مُذْنِب، أمّا الشّابَ «بت» فاعترف أنه مذنب.

ثم بدأ محامي التاج مرافعته مستشهدًا برئيس الجند الذي ألقى القبض على هؤلاء الثلاثة. فسأل رئيس المحكمة كلاًّ من هؤلاء الثلاثة ألَهُ اعتراض على أقوال الشّاهد فقالوا: لا. غير أن «بلود» أضاف إلى النفي قوله:

– «ليس لي اعتراضٌ على أقوال الشاهد يا سعادة الرئيسن غير أنه لم يَقُلْ في شهادته ماذا كنت أفعلُ عندما ألقي القبض عليّ...»

فقال رئيس المحكمة:

- «وماذا كنتَ تفعل؟»

فقال «بلود»:

- «إنّي طبيب... وبهذه الصفة دُعِيت إلى معالجة اللورد «جلدوي» وتضميد جروحه.»

فصاح محامي التاج وهو يحاول أن يؤثّر في المحلّفين:

- «يا للعجَب... هذا منتهى العجب... يزعثم هذا الرجل الآن أنه طبيب... بعد إذ قرّر في «المحضر» أنه عرف اللورد «جلدوي» في مدينة «طنجة» وأنه كان عند ذلك في خدمة الهولنديّين..»

فقاطعه «بلود» وقال:

- «لقد كنت طبيبًا قبل أن أكون جنديًّا... ثم عُدْتُ طبيبًا منذ شهر يناير من هذا العام...»

فقاطعه محامي التّاج وقال:

- «هذا مُحال! فالطبيبُ الهادئ الوَاجع لا يكون في صحبةِ الثّوار..»

فقال «بلود»:

- «ومن ذا الذي قال إن كنت منضمًّا إلى الثوار؟... وهل من المعقول وأنا رجل كاثوليكي المذهب أن أنضوي تحت راية زعيم البروتستنت؟!»

انحنى رئيسُ المحكمة إلى الأمام، ورفع يده المضمومة الأصابع

على منديله، وقال موجهًا الخطاب إلى «بلود»:

- «كلٌّ ومَذْهَبُهُ... فاذكُر يا فتى أن الله يكرهُ الكَذِب، ولسوف يعاقبك عليه عندما تمْثُلُ أمام محكمته في اليوم الأخير... فاستحلفك بالله إلا قلت الصِّدْق، وذكرت للمحكمة ماذا كنت تصنع في صحبة الثوّار؟»

- «دُعِيتُ لأغيثَ اللورد «جلدوي» وقد رأيت من واجبي أن ألبّي الدّعوة.»

فقال محامي التّاج وقد احتقن وجهه:

- «ومن ذا الذي دعاك؟»

فقال «بلود»:

«الشابّ «بت» ويستطيع أن يشهد على ذلك.»

فقال محامي التّاج:

- «يا له من شاهد!... لقد سمعته منذ قليلٍ يعترف بأنّه خان مليكه!»

فقال رئيس المحكمة:

- «يا سيّد «بلود» عندما جاء الشابّ «بت» يدعوك إلى معالجة اللورد «جلدوي» أكنتَ تعرفُ أن هذا الشابّ منضم إلى الثّوار؟»

- «نعم كنت أعرف ذلك.»

- «أوَلَمْ تتردّد مع ذلك في تلبية دعوته واصطحابه إلى حيثُ أراد؟»
- «لقد لبَّيْتُ نداء الواجب، واجب الطبيب.»

فقال محامي التاج محتدًّا:

- «أيّ واجب لبّيْتَ نداءه أيها الوَقِح! إن واجبك أن تخدم الله والملك. أما كنت تعرفُ أنك ذاهبٌ لمعالجة لورد هو من أنصار الدوق «مونماوث»؟»
- «بَلَى كنتُ أعرف.»
- «وذهبتَ إلى إغاثته غير حافل بواجب الإخلاص للملك؟»

فعيلَ صبر «بلود» وقال:

- «كان عليّ أن أعني بجراحه لا بآرائه.»

فدوّت همهمةُ تأييدٍ من صفوف المتفرّجين، شاركهم فيها بعضُ المحلَّفين مشاركةً صامتة، فثارت ثائرةُ محامي التاج وقال يخاطب المحلفين:

- «يا للرّجل الوَقِح! إن في بعض ما قاله هذا الرجل أيها السادة مَدْعاةً لشنقه.» ثمّ أتمّ مرافعته غير شفيقٍ بواحد من المتهمين الثّلاثة.

واخْتَلت هيئةُ المحكمة بعد ذلك للمداولة، واختلك كذلك المحلَّفون، ولما عادت المحكمة إلى الانعقاد أعلن المحلَّفون أنهم يعدُّون المتهمين الثلاثة مذنبين. فسأل رئيس المحكمة المتهمين الثلاثة عمَّا لديهم من دفاعٍ عن

أنفسهم، فأجاب الاثنان سَلْبًا، أمّا «بلود» فقد انطلق يقهقهُ ضاحكًا، فقال له رئيس المحكمة:

– «أتضحك وأنت على أبواب الأبديّة؟»

فأحَبَّ «بلود» أن يثأر لنفسه وقال:

– «يا سعادة الرئيس! أنا أوْلَى بالضَّحِك منك. فاسْمَعْ منّي آخر كلمة في هذه القضية قبل أن تصدر حكمك... إنّني بريء.. ولعلَّ اللوم الوحيد الذي قد يُوَجَّهَ إليّ، أني كنت إنسانًا أجابَ نِداء الإنسانية. إنك يا سعادة الرئيس تُلَمِّحُ، وأنت القاضي، إلى ما ينتظرني، وإني لأستطيع أن ألِّح، وأنا الطبيب، إلى ما ينتظرك... ولا أكذبك القول أني لا أتمنَّى أن أكون في مكانك... فلن أستبدلَ بحَبْل المشْنَقة هذا الدَّاء العُضال الذي ينخر جسمك... إنّ الموت الذي ستحكم به عليّ هو أعْذَبُ وأحلى من الموت الذي يدّخره لك الله سبحانه وتعالى...»

واصْفَرَّ وجهُ رئيس المحكمة، وارتجفت شفتاه، وبقي هنيهةً جامدًا صامتًا لا يتحرّك... وانتظر كلُّ من في القاعة أن ينفجر الرئيس غاضبًا ساخطًا، ولكنه تملك أعصابه، وانحنى قليلاً إلى الأمام، وأصدر حكمه على المتّهمين الثلاثة بالقتل شَنْقًا، ثم استلقى إلى ظهْرِ مقعده، وقد أخذ منه التّعب والإعياء كلّ مأخَذ...

وسار الحرسُ بالمتهمين الثلاثة... ولئن وصل «بلود» إلى هذه

الخاتمة الأليمة، لقد كان من حسن حظه مع ذلك أنَّه لم يشنق بغير محاكمة، وكان من حسن حظه أيضًا كما قلنا أنه حوكم يوم ١٩ سبتمبر، فقد كان تنفيذ الحكم بالشّنق إلى هذا التاريخ، يحدث بسرعة البرقِ الخاطف، ولكن حدث أن تلقَّى رئيس المحكمة في ظهر ذلك اليوم، رسالة من رئيس الوزراء، يأمره فيها بوقف تنفيذ القتل، ويخبره أن جلالة الملك قد أصدر عفوه عن ألف ثائر، وأمر بنقلهم إلى جزر «الأنتيل» عبيدًا مسخّرين.

وهكذا ابتعد حَبْلُ المشنقة عن عنق «بلود» وعنق زميليه... فأوصلهم الحرس إلى مدينة «برستول» وأركبوهم مع خمسين رجلاً من الثّوار السفينة «جامايكا» فسارت تمخُر بهم البحار إلى تلك الجزر النائية...

واجتمع على هؤلاء الثوار المساكين، سوءُ الغِذاء وسوء المأوى في قعر السفينة، فركبتهم الأمراض، ومات منهم ١١ رجلاً كان بينهم صاحب المزرعة.

وأبَى رُبّان السفينة في أول الأمر أن يسمح للطبيب «بلود» بمعالجة هؤلاء المرضى البائسين، ثم اضطُرَّ في آخر الأمر إلى القبول، والسَّماح له باستخدام صندوق الأدوية والعقاقير الموجود في السفينة، خشية أن يموت جميعُ هؤلاء الثّوار، فيخسر المبلغ الذي كان يتوقع أن يظفر به من بيعهم في سوق الرَّقيق.

وفي منتصف ديسمبر، رَسَت السَّفينة في ميناء «كارليل» ونزل منها

الأشقياء الاثنان والأربعون، فوجدوا أنفسهم في ميناء صغير جميل، ومدينة ذات طابَع أوربيّ، قام قصرُ الحاكم فيها على ربْوَةٍ من الأرض، واكتست الربى كلها بثوب أخضرَ جميلٍ فشهرُ ديسمبر في تلك البقاع يعادِلُ شهر أبريل في إنجلترا...

وجاء الحاكم «ستيد» يتوكّأ على عصاه ليرى ذلك الفوج من المحكوم عليهم، فاقترب منهم، ووقف وراءه رجل طويل القامة بدينٌ ضخم، هو رئيس حامية الجزيرة، ووقفت غلى جانب هذا العملاق، فتاةٌ رشيقةٌ جميلة، تلوح على وجهها أمارات الشّفَقة والحنان بهؤلاء البائسين المنفيين.

نظر «بلود» إليها مدهوشًا مستغربًا من وجود ذلك الملاك في تلك البُقْعة النّائية، وكانت هي أيضًا قد وقع نظرُها على «بلود» فحدقت فيه طويلاً، ثم أسرَّتْ بشيْءٍ إلى رئيس حامية الجزيرة، فالتفت إليهما الحاكم واشتركوا جميعًا في الحديث، فسمع «بلود» الحاكم يقول لرئيس الحامية:

— «يا عزيزي «بيشوب» لك الخِيار... فاخْتَرْ من تريد، ثم نبيع الباقي في المزاد العلني.»

فاختار رئيس الحامية الشّابّ «بت» ودفع فيه ١٥ جنيهًا، ثم أجال طرفه في بقية المحكوم عليهم فاختار منهم من اختار، ولما تطلع إلى «بلود» أظهر امتعاضه من شكله وحاله، فاقتربت الفتاة من رئيس الحامية وكان عمها وقالت له:



– «هوذا الرجل الذي حدثتك عنه يا عمّاه.»

– «هذا الرجل؟ إنه جِلْدٌ على عَظْم! ! ...»

فاشترك ربّان السفينة في الحديث وقال:

– «إنّه نحيل البِنْية ولكنه قويٌّ الأجْلاد... لم يمرض قْطٌّ في أثناء السَّفر بل تولَّى هو نفسه معالجة زملائه... فادفعْ لي به يا سيادة الرئيس خمسة عشر جنيها... إنه رجل يتحمل القيظ والحرارة.»

وبعد المساومة اشترى «بيشوب» رئيس الحامية الطبيب «بلود» بعشر جنيهات، وهكذا حكم عليه القدر بأن يكون عبدًا لذلك الجِلْفِ الغليظ...



٣

في صباح يوم جميلٍ من أيام شهر يناير، أي بعد نحو شهرٍ من وصول السّفينة إلى ميناء «كارليل»، خرجت الآنسة «أرابلا بيشوب» من منزل عمّها الكولونيل «بيشوب» رئيس الحامية، وامْتَطتْ صَهْوة جوادها، وسارت به فوق الرُّبِى والتِّلال، يتبعها مَشيًا على الأقدام عَبْدان أسودان.

وصلتْ إلى قمة تلٍّ من التِّلال، فرأت رجلاً مرتديًا بِرداءٍ أسود مقبلاً إليها، فوقفت جوادها، فدنا منها الرجل، ورفع إليها عَيْنَين مملوءتين بالحزن والكآبة، فحدقت فيه وقالت:

– «يلوح لي أنِّي رأيتك قبل اليوم يا سيّدي!»

وكان في صوتها رنينٌ من الصّراحة والبراءة وسلامة الطويَّة، كانت قد كسبت بها كلَّ من عرفته أو لقيَتْه من الرّجال الأحرار أو العبيد، وكانت وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، لا تزال فتاةً غير متزوِّجة على كَثْرَة من تقدّم إليها من الخُطّاب.

فقال لها الرجل:

– «كيف لا تعرفين يا آنسة مَنْ هو ملكُ يَدَيْك؟»

– «ملكُ يديّ أنا؟!»

– «ملكُ يديك أو ملك يدي عمّك فالأمر سيّان... اسمي «بطرس بلود» وثمني عشرة جنيهات اشتراني بها الكولونل عمّك.»

فعرفته الفتاة، وكانت لم ترهُ منذ ذلك اليوم الذي وصل فيه إلى الميناء، وعرفت كذلك ما قيل عنه من أنه طبيب، وتذكَّرتْ أنه شَفى الحاكم من الداء الذي ألمّ به، في حين عجز عن ذلك جميعُ أطباء المدينة، كما أنه شفَى زوجة الحاكم أيضًا مما كانت تعانيه من القَيْظ القاتل... ثم قال لها:

– «تقبَّلي يا آنسة جزيل شكري، فلو اشتراني غيرُك لكنتُ الآن مع زملائي التَّاعسين، أعمل في الحقول تحت ضربات السِّياط، ولما استطعت أن أزاول ما أعرفُ من صناعة الطب.»

– «ولكن الذي اشتراك يا سيدي هو عمّي لا أنا.»

– «ما كان ليشتريني لو لم تدفعيه إلى شرائي... لقد لمحتُ ذلك... فلماذا اهتممتِ بشأن رجلٍ غريب.»

– «لأني وجَدْتُكَ تختلف عن بقيَّة المحكوم عليهم...»

– «هذا صحيح يا سيّدتي...»

وقص عليه قصتّه الأليمة في إنجاز واختصار، فنالت من فؤادها كلَّ مَنال، ورثت لحالِ بلدهّا من شُيوع الفوضى والظُّلْم فيه.

ثم أعملتْ مهمازها في بطن الجواد، فجرى مسرعًا، ولحق بها العبدان الأسودان اللَّذان كان قد وقفا على مسافة منها، وانحنى «بلود» مسلِّمًا، وبعد قليل سار إلى مستعمرة الأكواخ المخصصة بسكنى العبيد، وكان «بلود» يسكن فيها مع إخوانه في الشقاء.

كان ينظر إلى مَذلَّتهم ومذَلته، وإلى عملهم القاسي تحت الشّمس المحرقة، وضربات السِّياط، فيتألّم لهم، ويمتليء قلبُه حقْدًا على القُسَاة الظَّالمين.

ومن حين إلى آخر، كان يقابل الآنسة «بيشوب» فتحدِّثه قليلاً، وكان يُمْسك نفسه عن الاستسلام إلى ما كانت تُشيعُه الفتاة في نفسه من طمأنينة وتفاؤل، فقد كان يعتقدُ أن مظهر الفتاة الجميل العادل، لابدّ أن يُخفي مخبرًا قاسيًا ظالمًا، ما دامت ابنة شقيق ذلك الكولونل الطَّاغية.

ولكن كان «بطرس بلود» مخطئًا في حكمه، وقد برهنت له الأيام على خطئه.

وفي يوم من أيام شهر مايو دخل ميناء «كارليل» سفينة إنجليزية مصابة بكثيرٍ من العَطَب، فقد كانتْ قاتلتْ سفينتين من سُفن الإسبان، واستولت على ما في إحداهما من أسْلاب، في حين ولّت الثانية الأدْبار هاربة. وكان ذلك عملاً من أعمال القَرْصَنَة التي كانت شائعةً في ذلك العصر، فتغاضى حاكمُ الميناء عن الأمر، وسمح للسّفينة بالبقاء في الميناء، رَيْثَما تُصْلِح ما فيها من عطب، كما سمح بإنزال الأسرى الإسبانيين لمعالجتهم، وعهد في تلك المعالجة إلى الطبيب «بلود» لأنه كان يجيد التكلم بالإسبانية، ولأنه ذليلُ الشأن في السّلم الاجتماعي، فقام بمهمته على أحسن وجه، وإن كان يكره الإسبانيين بعد إذ مكث سنتين سجينًا في أحد سجونهم.

وبينما هو في أحد الأيامَ يجْبُرُ عظمًا مهِيضًا لأسيرٍ من هؤلاء الأسرى، إذ سمع صوتًا أجشّ يقول له:

— «ماذا تفعل هنا؟»

فقال «بلود» دون أن يرفع رأسه عن مريضه:

— «أجْبُرُ عظمًا مَهيضًا...»

— «إني لأرى ذلك أيُّها الوَقِح؛ ومن سمح لك بجَبْر العِظام؟»

– «إني طبيبٌ يا سيادة الكولونل «بيشوب»، وإني أزاولُ مهنتي.»

واستمرّ «بلود» في عمله، فاستولت على الكولونل سَوْرَةٌ من الغضب فقال وهو يصيح:

– «قِفْ حالاً عن العمل. وانظر إليّ أيُّها الوقح عندما أكلّمك.»

– «هذا الرجل يتألم... وكيفما كانت الحال فأنا أنفذ أوامر سيادة الحاكم.»

وكان الكولونل «بيشوب» قد رفع سَوْطه، وهمَّ بضرب «بلود» فتوقف واحتقن وجهه وقال:

– «الحاكم!»

وذهب إلى لقاء الحاكم، ثمّ خرج من لَدُنْه ووجهه أشَدُّ احتقانًا، فقد أفهمه الحاكم أنه وحده الآمر الناهي في تلك البقاع، وأنه قد أصدر أمره إلى «بلود» بمعالجة الأسرى، فهو إنما يفعل هذا تنفيذًا لأمره...

وكان «بلود» في هذه الأثناء لا يزالُ يعني بعظم المريض المكسور، فالتفت فجأة إلى الوراء، فرأى الآنسة «أرابلا بيشوب» يتبعها عبدٌ أسودُ يحمل سلةً مملوءة بالثِّمار.

عرف «بلود» أنها جاءت بالثِّمار للمريض، فقال لها كمن يحدثها عن شئ حقير مرذول:

– «هذا الرجل إسبانيٌّ يا آنسة!»

– «أعرف ذلك وأراه، ولكنه مع هذا إنسانٌ من بني البَشَر!»

فدهش «بلود» من هذا الجواب، ولم يستطع إخفاءَ دهشته فقال:

– «ولكن هذا يا آنسة ليس رأي عمّك الكولونل... فهو يريد أن يترك الأسرى وشأنهم حتى يموتوا متأثّرين بجراحهم...»

فنظرت الفتاة إليه نظرةً طويلة، مدركةً ما وراء كلامه من سخرية واشمئزاز، ثم قالت له بعد أن تناولت بعض الثمار ووضعتها على سرير المريض:

– «لماذا تقول لي هذا؟»

– «لكي أنبّهك إلى الخطر الذي تستهدفِين له، فعملك هذا وآراؤك هذه لا تروق عمّك الكولونل.»

– «أتظنّ أن آراء عمي يجب أن تكون آرائي؟»

– «هيهات أن أسئ الظن بامرأة، ولكن ذهب فكري إلى عمّك فلو جاء ورآك...»

فقاطعته الفتاة وقالت:

– «وصفوة القول أنك تتّهمني أوّلاً بتجرُّدي من الإنسانية ثم بالجُبْن... أنت الذي تزعم أنك لا تسئ الظنَّ بالنِّساء.»

وانطلقت تقهقه ضاحكة، فتطلع «بلود» إليها، وَخُيِّل إليه أنه يراها لأول مرة، فقال في نفسه وهو يحاول إخفاء شعوره: هذه الفتاة

وعمها مَلَكٌ يعيش في رحاب شيطان.

ومرّت الأيّام، وطارت شهرة «بلود» في الطب والتّطْبيب، فاستاء منها الطبيبان المقيمان بالمدينة، فعرض أحدهما على «بلود» أن يسعى في فراره، ويمهّد له السبيل إلى ذلك، فخشي «بلود» في أول الأمر من كمينٍ يريد أن يوقعه به، ثم لمَّا استوثق من أنه لا يبغي إلاّ الخلاص من مُنافسته، رَضيَ بالعَرْض، وطلب إليه أن يجهِّز له سفينة يُبْحِر بها هو وزملاؤه إلى أقرب جزيرةٍ هولنديةٌ، واتفقا على أن يرسل الطبيب خادمه إلى «بلود» في الوقت المناسب، ليدلَّه على السفينة، ويخبره بموقعها حتى يُعِدَّ عُدته، ويحدّد يوم الفرار وساعته.

ويوم أعدت السفنية شاء الحظّ العاثر أن يذهب الخادم إلى الحقول فلا يلقي «بلود» هناك، فقيل له ربما كان «بلود» في المستعمرة، فهمَّ بالسَّيْر إليها، فإذا بالكولونل «بيشوب» يظهر فجأةً ووراءه عبداه المسلَّحان بالسَّكاكين الغليظة، فما كان من الخادم إلا أن استدار على عَقِبَيْه، وأطلق ساقَيْه للرّيح في الجهة المقابلة،متوغِّلاً في الغابات، وكان أخشى ما يخشاه أن يكون الكولونل قد رآه وعرفه، فلن ينجو إذن من عقابه الصَّارم.

وكاد الكولونل أن يأمر عبدَيْه باللحاق بذلك الهارب، ولكنه لما كان قد رآه يحدِّث الشاب "بت" فقرر أن يسأله عنه ويعرف من هو. وكان "بلود" قد أطلع "بت" على مؤامرة الهرب، وأخبره أنه يعتمد عليه في

قيادة السفينة، لما يعرف عنه من مهارة وحِذْقٍ في الملاحة وقيادة السّفن.

فلما وصل الكولونل إلى "بت" سأله عن الرجل الهارب، فأنكر أنه يعرفه، فانقض الكولونل على "بت" المسكين يضربه بعصا رفيعة الخَيْزُران كانت في يده، فلم يُحِر الفتى جوابًا، ولا نَبَسَ ببِنْتِ شَفَة، ثم أمر العبدين بأن يقودا "بت" إلى المكان المخصّص بجلْد العبيد، وأن يُعْملا به السِّياط فَنَفذا أمر سيدهما ولم يتركا ذلك الشاب المسكين إلا وظهره مثْخنٌ بالجراح، وهو أقربُ إلى الأموات منه إلى الأحياء...

وانصرف الكولونل وقد أرْوى غليلَه من الحقد والبغضاء، على ذلك الفتى الذي تحمّل أقسى أنواع العذاب، وكَتَم اسم الخادم الذي كان يحدّثه.

واتّفق أن مرّ "بلود" بذلك المكان، فلقي فيه "بت" على تلك الحال من الجراح المفتوحة، فأخذ يعالجه ويضمّد له الجراح، فعرف منه أمر الخادم، وفهم أنه جاء يُنْهي إليه بأن سيده قد أَعَدَّ له سفينةَ الهرب.

واتّجه نظر "بلود" و "بت" إلى الميناء فرأيا سفينة ضخمة رافعة العلم الإنجليزي تدخل إلى الميناء، وأدركا من طريقة دخولها إلى الميناء في حرص وحذر، أن الرّبان غريبٌ عن ذلك الميناء، ثمّ شاهداها بعد قليل تطلق دخانًا كثيفًا استترتْ وراءه، ولم يعد يُرَى منها إلاّ

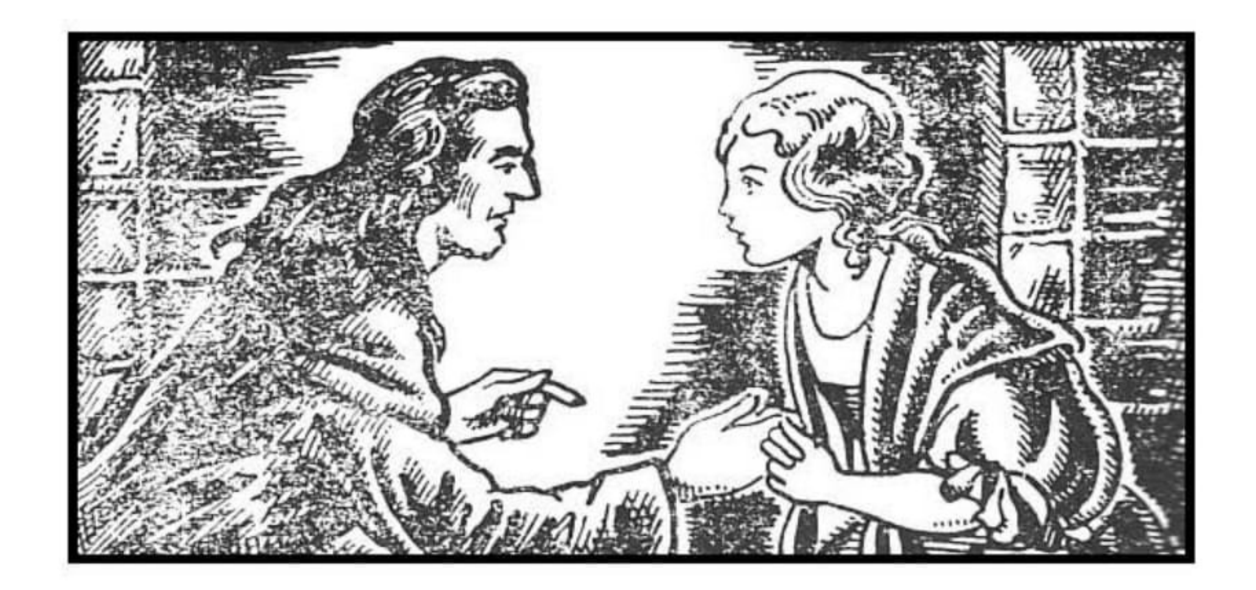


رؤوس سواريها.

وفي غمار ذلك الدُّخان الكثيف، أخذت تلك السفينة تُطلق النار...

فدهش "بلود" وزميله من ذلك الحادث، ولكن تجلَّت لهُما حقيقة تلك السّفينة، لما رأيا أن العَلم الإنجليزي قد انطوى منها، وأن النار المنبعثة من مدافعها يدلُّ لَهَبُها الأحمر الذّهبيّ على أنها من نيران قشتالة الإسبانية فهزّا رأسيهما، وكان الكولونل "بيشوب" في تلك اللحظة على قمّةِ رابية من الرَّوابي، فرأى هو أيضًا كل ذلك، وفَهِمَ ما يجب أن يفهم فلم يسعه إلا أن يصيح في ذعر وخوف:

- "إنهم القراصنة..."



٤

لم تكن السّفينه التي دخلت الميناء وهى رافعةٌ العَلَم الإنجليزي إلا سفينة إسبانيّة، جاءت تثأرُ للأسطول الإسباني من الهزيمة التي لحقت منذ أيام بسفينتين من سفنه.

وكانت هذه السفينة وعلى رأسها الربّان "دون دياجو" هى التي هربت عندما هاجمتها السفينة الإنجليزية الراسية في مياه "كارليل" تُصْلِح ما بها من عَطَب.

وصلت الأنباء إلى الربّان أن السفينة الإنجليزية قد التجأت إلى ذلك الميناء، وانتهى إليه أيضًا أنّ بقية قطع الأسطول الإنجليزي بعيدة عنها،

فسوّلت له نفسه المتعطشة إلى الأخذ بالثأر، أن يهاجمها في ذلك الميناء، وأن يأخذها ويأخذ حامية المدينة على غِرّة.

وتمّ له ما أراد، فقد أسكتتْ نيرانه مدافع الحصن المشرف على المدينة، وفَهِم الجند الذين فيه أن عدوًّا من الأعداء قد باغتهم وخَدَعهم بالعَلَم الإنجليزي الخفَاق فوق السفينة.

وكان الكولونل "بيشوب" ينظر إلى تلك الحوادث، وقد عقدت الدهشة لسانَه، ولا سيما عندما أطلقت تلك السفينة السِّلْسلة الثانية من قذائفها، فدمّرت حصن المدينة وجعلته قاعًا صَفصَفًا.

ثاب رُشْدُ الكولونل إليه، فأدرك الخطر المُحْدق بالمدينة بل بالجزيرة كلها، وسمع الطُّبول تُقْرَع في شوارع المدينة داعيةً أهلها إلى الدفاع عن ذِمارهم، فما وَسِعه إلا أن يجري مسرعًا إلى حيثُ يدعوه الواجب، فما كان لرئيس الحامية أن يَتخلَّف عن ذلك النداء، فركض يتبعه حارساه...

وفي ناحيةٍ أخرى من الجزيرة، كان "بلود" يقول للفتى "بت":

– "ماذا وراء كلّ هذا؟ ليس إلا الشيطانَ منْ يعلم ذلك؟!"

ولم يكن "بلود" وصاحبه بعيدين عن الحصن الذي تهدّم، فرأيا الأحياء من ناحية الحامية قد هجروا الحصن ووراءهم جمهرةٌ من الأسرى الثوّار ثم دخلوا أحد المنازل وخرجوا منه مدجَّجين بالسلاح وسمعا ضابط الحصن يقول للمجتمعين:

– "تفرّقوا في الغابات حتى إذا ابتعد الإسبان عنَّ عُدْنا إلى المدينة."

وتلكَّأ المستمعون في الجواب وتلبية النداء، غير أن الضّابط لم يكن ينتظر الجواب، ففي أسرع من تردُّد الطرف كان قد اختفى عن الأنظار.

وغَلَى الدَّمُ في عُروق "بلود" فإذا به يتوسط هؤلاء الثوّار والجنود ويقول لهم:

– "وعلامَ التفرُّق والهرب؟ لننتظر على الأقلّ حتى يستولى الإسبان على المدينة."

ومن قمّة الرابية التي اجتمع فيها هؤلاء الرجال، رأى "بلود" زوارق الإسبان تمخُرُ عُبَاب الماء إلى الميناء وهى محمَّلة بالجنود، فاحتلَّته بغير مقاومة.

على أن الإسبانيين عندما تفرقوا في شوارع المدينة، قاومهم الأهلون مقاومةً شديدة، وقاتلوهم قتالَ الأبطال، ولكن تغلَّبَ الإسبان عليهم، فما كادت الشمس تغرب في ذلك النهار، حتى كان الإسبان قد سيطروا على المدينة.

ومشى الربا "دون دياجو" إلى قصر المحافظة، فاستقبله الحاكم "ستيد" والكولونل "بيشوب" وبعض كبار الضباط، فأنهى إليهم "دون دياجو" ساخرًا هازئًا بمبلغ الجزية التي فرضها عليهم...

وجازف "بلود" بعد الأصيل، فسار إلى المدينة، وشهد بأمِّ عينه

ما ارتكبه هؤلاء القراصنة الإسبان من جرائم وفظائع، وعندما هَمّ بالرُّجوع مشمئزًّا مستنكفًا، استوقفه في شارع ضيِّقٍ صوتُ فتاة جازعة، لم تلبث أن ألقت بنفسها إليه متوسلة أن ينقذَها من جنديّ إسبانيّ كان يتعقبها والسّيف مسلولٌ في يده، فوقف "بلود" بين الإسباني والفتاة، وكان قد التقط سيف أحد الأموات فَشَهره في وجه ذلك الجندي المتوحّش.

فكبُرَ الأمر على الإسباني، فهجم على "بلود" وهو يقول:

– "ابتعد من طريقي أيها الكلب الإنجليزي!"

فما كان من "بلود" إلاّ أن تفادى الضَّرْبة، وكال لذلك الإسباني ضربةً شديدةً مُحكمة، طرحته من فوره إلى الأرض فاقدَ الحياة.

ثم أمسك بيد الفتاة وسار بها في الشوارع والأزقّة، حتى وصل إلى مسكن الكولونل "بيشوب" فطرق الباب ثم كرَّر الطرق فلم يجبه أحد، فأخذ الحزنُ والقلق منه كُلَّ مأخذ، وخشي أن تكون الآنسة "أرابلا" قد خرجت من المنزل وتعرَّضت للسُّوء والأذى، ولكنه تنفس الصُّعَداء لما سمعها تقولُ من وراء إحدى النوافذ:

– "من الطَّارق؟"

– "أنا "بطرس بلود"..."

– "ماذا تريد؟"

وتقدّمت الفتاة التي صحبها "بلود" حتى قاربت النافذة فقالت:

– " "أرابلا" ! أنا "ماري تريل"."

وبعد دقائق، فتحت الآنسة "أرابلا" الباب، فدخل "بلود" وتبعته الفتاة فارتمت في ذراعي "أرابلا" وهي تنشجُ وتنتحب.

واهتمّ "بلود" بأن لا يضيع الوقت فسأل "أرابلا":

– "من معك هنا يا آنسة من الخدم والرّجال؟"

– "رجل واحد هو خادمي العجوز "جيمس" "

– "مُريه أن يُسْرج الجياد... فأنت هنا في خَطَرٍ يا آنسة، فعليك أن تلتجئي إلى مدينة أخرى من مدن هذه الجزيرة."

– "ولكن كنتُ أظنّ أن المعركة قد انتهت!"

– "أجل يا آنسة، إن المعركة قد انتهت، ولكن حل محلها السَّلْبُ والقتل والنَّهْب... ولسوف تحدّثك الآنسة "ماري" بهذا..."

فقالت الفتاة:

– "لقد أنقذني السيد "بلود" "

فقالت "أرابلا":

– "أنقذك!؟ ممن؟ وممَّ؟"

فقال "بلود" مقاطعًا:

– "من لا شئ يا آنسة... ستتحدثان عن كلّ هذا فيما بعد... فهل لك يا آنسة أن تستدعي "جيمس" فالوقت ضيّق."

فقالت "أرابلا":

– "أأصبحتَ يا سيد "بلود" تأمر وتنهي في هذا المنزل؟"

فتطلَّع "بلود" إلى الفتاة "ماري" وقال لها بلهجة المتوسِّل:

– "أخبريها يا آنسة أني حقيقٌ بأن آمر وأنهي في مثل هذه الساعة، وفي مثل هذا الخطر الذي تتعرَّض له".

فقالت الفتاة "ماري":

– "أنتَ على حقّ يا سيّد "بلود" وإني لن أنسى ما حييتُ فضلك عليّ."

وما هى إلا دقائق حتى كانت الفتاتان ووراءهما الخادم "جيمس" تخبّ بهما الجياد في الليل البهيم هربًا من ذلك الميناء. ولما وقف "بلود" يودّع تلك القافلة، ويتمنّى لها سفرًا سعيدًا، لم يسمع في جنح الدُّجَى إلا صوت الآنسة "ماري تريل" تقول له وهى مبتعدة:

– "لن أنسى ما حييتُ فضلك عليّ يا سيد "بلود"."

على أن "بلود" كان متشوقًا إلى سماع غير هذا الصوت... كان يَوَدُّ لو سمع صوت "ارابلا" يحيِّيه ويودِّعه...

وبقى "بلود" هنيهة جامدًا لا يتحرك، ثم صحا من حلمه وعاد إلى رفاقه...

وفي تلك الليلة التي استسلم فيها الإسبان إلى السَّلب والنَّهْب والقتل، كانت سفينتهم "سنكو لاجاس" لا يحرسها إلاّ عشرة رجال، أو لا يحرسها بالأحْرَى إلاّ حارسان: واحد في المقدمة والثاني في المؤخرة، أما الثمانية الأخر فقد كانوا صَرْعى الشراب والطعام. ولم يكن حتى الحارسان على شئ من الحِرْص والحذر، ففاتهما أن يشعرا بقدوم زورقين ممتلئين بالرّجال، كانا قد انسابا في خفّةٍ ورشاقة على صفحات الماء ووصلا إلى مؤخرة السفينة.

وكان السلم الذي نزل منه الربان "دون دياجو" لا يزال منشورًا بين سطح السفينة وصفحة الماء، فلمح أحد الحارسين شَبَحًا ينبثق أمامه، فظنه أحد مواطنيه قد قدم من المدينة فصاح قائلاً:

– "من هنا؟"

فقال "بلود" بإسبانية فصيحة:

– "أنا." فقال الحارس وقد اقترب من الشَّبَح:

– "أأنت هنا يا "بدرو" ؟"

فقال "بلود" وقد انحنى فأمْسِك بساقَي الحارس:

– " "بدرو" أو "بطرس" إنهما سِيَّان!"

وسُمع بعد ذلك صوتُ جسم يسقط في الماء، وكان من سوء حظّ الحارس أنْ عَصَفَ به سلاحُه الثَّقيل فذهب به إلى قَعْر البحر.

وصفر ”بلود“ صفيرًا خاصًّا، فتجمع حوله رفاقُه العشرون، واستطاعوا وهم في مؤخّرة السفينة أن يروا شبح الحارس الثاني يروحُ ويجيء في المقدمة، وأن يسمعوا أصوات السكارى منبعثة من إحدى غرف السفينة تغنِّي وتعربد.

وتفرّق هؤلاء الثُّوَّار في أنحاء السفينة، وهم مسلّحون بالبنادق والسكاكين التي كان ”بلود“ قد أعدّها ليوم الفِرار، ولم تَطُلْ مهمَّتهم، فما عَتَّموا أن اجتمعوا ثانية بعد قليل، وقد بعثوا بالحارس الثاني إلى أعماق البحر، وقيَّدوا الثمانية الآخرين بالسَّلاسل والأغلال، وطرحوهم في قعر السفينة.

واستولى الثّوار على السفينة، وأمعنوا فيها بحثًا وفحصًا حتى عرفوا خوافيها ومخابئها، ووقفوا على ما فيها من زاد وعتاد، وتسلم كل منهم العمل الذي يجيده في قيادة السفينة فقد كان بين هؤلاء الثوّار ملاّحون مهرة.

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة من استيلائهم عليها، حتى أخبرهم الرجل الذي عينوه للحراسة، أن هناك زورقًا مقبلاً إلى السفينة، فاستعدوا لاستقبال من فيه.

وكان الزّورق يحمل ”دون دياجو“ وقد عاد بأربعة صناديق مملوءة بالذهب، وعاد معه ابنه وستّة من الجنود.

وصل الزّورق إلى سلم السفينة، فصعد فيه ”دون دياجو“ ولم يَكَدْ يبلغُ سطحَ السفينة حتى فوجئ بضربة على أمِّ رأسه، سقط بعدها مغشيًّا عليه،



فنقل بسرعة البرق إلى مقصورته القائمة في وسط السطح.

وتبعه ابنه والرجال الستّة فكان مصيرهم مصيره، أمّا الصناديق الأربعة فوضعت في جانب من جوانب السفينة عند مدخل السطح.

وفي تلك اللحظة كان الحاكم "ستيد" ينظر إلى القراصنة الإسبان وهم يتزاحمون على ثمانية زوارق ركبوها من الميناء وعادوا بها إلى السفينة متساندين متقاربين وهم نصف سكارى. فلما صاروا في منتصف الطريق، وقعت على مقربة من أحد الزوارق قذيفةٌ أطلقتها السفينة، فدهشوا وقالوا: مَنْ ذلك المجنون الذي يحيي عودتهم بقذائف الحديد والنار. وبينما هم يسبون ويلعنون، إذا بقذيفة ثانية وثالثة ورابعة تتساقط في وسطهم، وتبعث إلى أعمال البحر بخمسة زوارق وبمن فيها من رجال.

وأسرع مَنْ بقي حيًّا من أولئك الإسبان راجعًا إلى الميناء، فاستقبلهم الأهلون أشنع استقبال، بعد إذ صحوا من هول المفاجأة. وحدِّثْ عن دهشة سكان الجزيرة ولا حرج، عندما رأوا العلم الإنجليزي يرتفع فوق سارية السفينة، فأدركوا أن السفينة قد وقعت في يد نصير لهم أو حليف، ولكن تُرَى مَنْ يكون؟ فأوفد الحاكم إليها الكولونل "بيشوب" يستطلع أمرها، فذهب ومعه ضابطان من ضباطه.

فلما وضع قدمه فوق ظهر السفينة، ورأى تلك الصناديق الأربعة، سال لها لُعابُه، ولم يَدْرِ لأول وهلة أن أولئك الجنود المحيطين بها وهم في

ملابسهم الإسبانية، إنما هم عبيده الثّوار الذين يشتغلون في مزارعه.

فسمع صوتًا مهذبًا يقول له:

– "أهلاً وسهلاً بك يا سيّدي الكولونل! لا تخدعنك ملابسنا الإسبانية، فقد اقترضناها من رجال السفينة ولبسناها تكريمًا لك وحفاوة بك. فأنت بين أصدقائك القدماء!"

خُيِّل إلى الكولونل أنه يعرف هذا الصوت الذي يخاطبه، فتفرس مليًّا في صاحبه ثم صاح مدهوشًا:

– "بطرس بلود" ؟! إذن أنت..."

فقاطعه "بلود" قائلاً:

– "نعم أنا وأصدقائي..."

– "إن هذا لمن العجب العجاب... بهذه الحَفْنَة من الرّجال تستردُّ صناديق الذهب الأربعة وتستولى على السفينة... إنك وهؤلاء الرجال لتستحقُّون مكافأة سنيّة..."

فقال "بلود" متهكمًا:

– "وما مقدار المكافأة السنية وما نوعها؟"

فقال الكولونل:

– "سأطلبُ من سعادة الحاكم أن يكتب إلى لندن ويسألها تخفيف عقوبتكم."

فقال أحد الرجال:

– "نحن نعرف كرَمَ الملك "جاك" !"

وقال آخر:

– "ونعرف عدالة الكولونل! فما كنَّا لننسى طعْمَ سِياطه!"

فقال "بلود":

– "هذا صحيح يا سيّدي الكولونل، فالفتى "بت" الذي لا تراه بيننا، إنما هو طريح الفراش في إحدى الغرف وظهره في لون قَوْسَ قُزَحَ، وهذا من فضل سَوْطك الكريم!"

فقال آخر:

– "ولماذا نُطيل الحديث مع هذا الكولونل، بل مع هذا الوحش الضّاري، هيا نشنقه فوق أحد السَّواري."

فاضطرب الكولونل اضطرابًا شديدًا فقال "بلود":

– "أيها الرفاق! لا تنسوا أننا اتفقنا على أن أكون الحاكم المطلق على ظهر السفينة..."

ثم التفت إلى الكولونل والضَّابطين اللذين معه وقال:

– "سيدي الكولونل! سنحتفظ بك رهينةً حتى نبتعد عن الميناء ونصبح في وسط البحر، وذلك خشية أن تعود مدافع الحصن إلى إطلاق القذائف. أما أنتما يا سيديّ الضابطين فلكما أن تعودا من حيث جئتما..."

فلم يعترض الضّابطان على هذا الأمر، فنزلا من السّفينة وعادا بالزّورق الذي جاءا به.

وأنهى الربّان "بلود" أوامره إلى رجاله، فانتشرت على الفور أشْرعَةُ السفينة، ورُفعت المِرْساة، ودارت المحرّكات، وأخذت السفينة تتحَرَّك مبتعدةً عن الميناء.

وما إن أصبحتْ خارج الميناء حتى قال "بلود" للكولونل:

– "أتعرف السِّباحة يا سيّدي الكولونل؟"

فاحتقن وجه الكولونل، وكاد ينفجر غيظه المكتوم، فاستأنف "بلود" يقول:

– "إنك على مسافة قريبةٍ من الميناء، فتستطيع أن تجتازها سباحةً. وهَبك لا تعرف السباحة فإن بدانتك كفيلة بأن تطفو بك على صفحة الماء."

وأشار "بلود" إلى الكولونل إشارة تدعوه إلى معانقةِ الماء، فنظر إليه نظرةً تطايرتْ بشرر الحقد والبغضاء، فخلع ملابسه وقذف بنفسه إلى البحر، وأخذ يسبحُ عائدًا إلى الشاطئ.

وتذكر "بلود" أن هذا الرجل البغيض إنما هو عمّ الآنسة "أرابلا" الحسناء الرفيعة الخِلال فشقَّ عليه أن يكون الشيطان عمًّا لِمَلَك كريمٍ.

وتابعت السّفينة مجراها...

٥

صحا "دون دياجو" في صباح اليوم التّالي، على أشعَّة الشّمس المتسرِّبة من كُوَّةٍ صغيرة، فرأى نفسه في سريره ومقصورته من السَّفينة "سنكو لاجاس" فحاوَلَ أن يتذكر ما جرى له منذ أنْ عاد إلى السفينة، غير أن الصُّداع الذي كان مستوليًا عليه حالَ بينه وبين التَّفكير.

وبينما كان على مثل تلك الحال من الألم وصعوبة التذكُّر، إذا به يرى بابَ المقصورة يُفْتَح، ويدخل منه رجلٌ يرتدي أجمل بذلك كانت لدى "دون دياجو" فعرفها على الفور بقماشها الأسود الجميل وأشرطتها الذهبيّة. فحمْلقَ فيمَنْ يرتديها، فإذا هو رجلٌ شبيه به في طولِ قامته، ونُحولِ بَدَنه، ثم تَقدم الرجل منه وَجسَّ رأسه وقال له بالإسبانية:

– "ألا تزال تتألّم؟"

ولم يكتف بذلك بل أخذ يفحصُ نبْضَه فقال له "دون دياجو":

– "أأنتَ طبيب؟"

– "أمارسُ مهنةَ الطبِ ممارستي لكثير من المِهَن غيرها."

– "ومن تكون أيُّها الرجل الذي يرتدي ملابسي، ويدخل عليّ في مقصورتي وعلى سفينتي!"

فتبسم الرجل وقال:

– "يلوحُ عليك يا سيدي أنك لا تزال تهذي... فهذه السّفينة ليست لك وإنما هى سفينتي... وهذه الملابسُ هى كذلك ملكُ يدي."

فقال "دون دياجو" مستغربًا مدهوشًا:

– "سفينتك؟! وملابسك؟! أليست هذه السفينة "سنكو لاجاس" لعلك تزعمُ بعد هذا أنك "دون دياجو"."

فقال الرّجل:

– "كلاًّ لن أزعُم هذا... فأنا الرُّبَّان "بلود" وهذه السفينة هى سفينتي، وهذه الملابس الفاخرةُ هى ملابسي، بحكْمِ حق الغزو والاستيلاء. أما أنت فإنّك أسيري."

– "لستَ إذن رجلاً إسبانيًّا."

– "كلا، فأنا رجلٌ إرلنديّ وإن كنتُ أجِيدُ التكلُّم بالإسبانيّة.

ولعلك تَوَدّ أن تعلم أية مُعْجزة حدثتّ فقلبت الأوضاع، وجعلتك تفقدُ سفينتك. فاعلم أنّي أنا صاحبُ المعجزة..."

ثمّ أخذ "بلود" يقصُّ على "دون دياجو" في عبارةٍ موجزة، كُلَّ ما حدث، فكان يستمع إليه والعرق الباردُ يتصبب من جبينه، وختم "بلود" حديثه بقوله:

– "إن وجودّك يا سيّدي بيننا، ووجودَ رفقائك المقيّدين بالأغلال والمطروحين في قعْرِ السّفينة، إنما هو عالةٌ علينا، فالزّادُ كما تعلم غيرُ كثير في هذه السفينة ولا قِبَلَ لنا بإطعامكم، فلابُد أن نلقيكم في البحر مُكْرَهين..."

وكان "دون دياجو" يسمعُ هذا الكلام في شِبْهِ ذهول، ثم استوضح محدِّثَه أمْرَ ابنه، فعلم أنه حيٌّ يُرْزَق، وأنه في عداد الأسرى.

واستأنف "بلود" حديثه فقال:

– "على أن هناك وسيلةً تستطيعون بها الإبقاءَ على حياتكم..."

فتطلّع الإسبانيُّ إلى "بلود" فاغرًا فاهُ، وتابع "بلود" كلامه فقال:

– "إنَّ الملاّح الذي نعتمد عليه في قيادة السفينة، مريضٌ خائرُ القوى، فلو أقسمت لنا بشَرَفك أن تقود السفينة إلى جزيرة "كوراسو" أبقينا عليك وعلى ابنك ورُفقائِكَ."

فتهلَّلَ وجه "دون دياجو" بِشرًا، وقبل الاقتراح المعروضَ عليه،

فأطلق "بلود" سراحه، وأقبل الإسبانيُّ على قيادة السفينة فَرِحًا مسرورًا، وأظهر للرُّبان "بلود" وزملائه من المودَّة ما جعلهم يميلون إليه ويثقون به.

وحالما تسلَّمَ القيادة، ورأى السَّفينة سائرة إلى الشرق على عكس اتِّجاه الرِّيح، بيَّن للرُّبَّان "بلود" وزملائه أنَّ في سَير السَّفينة على هذا النَّحو خطرًا كبيرًا، فضلاً عن أن البحر في هذا الاتجاه لا يخلو من السُّفن المترصِّدة المترقِّبة للغَزْو، في حين أنَّ حالَ السفينة وَعدَدَ رجالها لا يسمحان بالدفاع عن نفسها إذا هُوجمت، فالأولى اتباع طريق آخر للوصول إلى جزيرة "كوراسو" ولن يطول ذلك عن ثلاثة أيام. فأمَّنَ "بلود" وزملاؤه على كلامه.

وانقضت الأيامُ الثلاثة والسّفينة لا تزال تمخُر عُبابَ الماء، وما من أثر للأرض، فضاق "بلود" ذَرْعًا، وكان كلَّما استوضح "دون دياجو" الأمْرَ قال له هذا: "سنَصِلُ غدًا."

ونزل "بلود" إلى حيث كان الفتى "بت" المريض فرآه على حال متحسِّنة، فقد انقطعت عنه الحمَّى وأخذت جراح ظهره تلتئم، وبدأ يشعرُ بالصحَّة تعودُ إليه، فطلب أن يُحْمَل إلى ظهر السفينة فِرارًا من الجو الخانق في غرفته، فأجابه "بلود" إلى ما طلب.

ولما صار على ظهر السفينة، أخذ يملأ رئتيه بالهواء النقيّ، ويتطلَّع إلى السماء الزَّرقاء ونجومها الجميلة، ثم استدار فجأة إلى "بلود" وقال له:

– "قلت لي إننا ذاهبون إلى جزيرة "كوراسو" متَّبعين طريقَ الجنُوب وإننا سوف نستديرُ منها عائدين إلى الشرق، ولكنَّني أرى السفينة تتَّجه إلى الشمال بل إلى الشمال الغربيّ، ودليلي على ذلك هذا الوضعُ العالي الذي ترى عليه نَجْم القُطب..."

فنهض "بلود" وهمّ بالكلام بعد إذ اصفرّ وجهه قليلاً، فرأى "دون دياجو" يخرج من مقصورة القيادة، وينزل درجات السلم المفضية إلى ظهر السفينة، فاستدعاه "بلود" فأقبل فقال له:

– "تعال احْكُمْ بيني وبين صديقي "بت" في مسألة نَجْم القطب، أوَضْعُهُ هذا دليلٌ على أننا نتجه إلى الجنوب أم إلى الشمال؟"

فقال "دون دياجو" دون تردد ولا تلعثُم:

– "دليلٌ على أننا نتجه إلى الشمال بل إلى الشمال الغربيّ، ولا أكتمك يا عزيزي "بلود" أنه سُهِي عن بالي عند الظُّهر أن أحدِّد مركز السفينة، فاتَّجهتُ هذا الاتجاه، وقد كنتُ أرجو أن لا يلتفت أحد إلى هذا الخطأ رَيثما أصحِّح الوضع... وكيفما كان الأمر، فسوف تلوحُ لنا الجزيرة في صباح غد..."

كان الجواب جليًّا واضحًا، فاستأصلَ كلَّ ريبة علقَتْ في النُّفوس.

وقُبَيْلَ مطلع الشمس في صباح اليوم التالي، كان "بلود" على ظهر السفينة يحدِّق في الأرض التي لاحتْ لعينيه، ولكنه لم يَكَد يرى

ذلك الخطّ الأخضر المستطيل الذي يملأ الأفق من الشرق إلى الغرب، حتى قَطَّب حاجبيه، فجزيرة "كوراسو" ليست على مثل هذه المساحة الطويلة.

وبينما هو يُمْعِنُ في التفكير لفتت نظره سفينةٌ ضخمة تقتربُ من سفينته، ثم سمع صوتًا يقول له بلهجة ساخرَة:

– "ها هى ذي أرضُ الميعاد..."

فالتفت إلى مصدر الصوت، فرأى "دون دياجو" يبتسم ابتسامةً نَكْراء، فسار إليه مغِيظًا مُحْنَقًا وهو يقول له:

– "أيُّها الخائن القذر! أتريد أن أقولَ لك إلى أين جئتَ بنا؟ إلى جزيرة "كوبا" أو إلى جزيرة "أسبانيولا" ولعل هذه الجزيرةَ الثانية هى الأصحُّ لأنها كانت الأقرب إلينا..."

اصفَرَّ وجه "دون دياجو" وتراجع قليلاً إلى الوراء، ثم هجم على "بلود" وهو يقول له:

– "أيها الكلبُ الإنجليزي! إنك لتعرفُ أشياء كثيرة!"

والتَحَم الرَّجُلان جسمًا بجسم وتدحرجا معًا إلى أرض السَّفينة غير أن "بلود" كان أصْلَبَ عودًا، وأقوى عَضلاً، فما هى إلا دقائق معدودات حتى كان الإسباني منطرحًا إلى ظهره، ورُكْبة "بلود" فوق صدره، ولكنه مع ذلك كان يبتسم فما عتَّم أن خاطبَ غريمَه قائلاً:

– "أتدري أيُّها الإنجليزي الوَقِح أيَّة سفينة هذه التي تقتربُ منا؟ إنها سفينة شقيقي "دون ميجل" أمير أساطيل قشتالة..."

فتجهَّم وجه "بلود" ونهض عن خصمه، ونهض الإسبانيّ بعده، ولكن رجال "بلود" استداروا حوله على الفور، وهمّوا أن يفتكوا به، فوقَفَهم "بلود" واتجه بنظره إلى السَّفينة التي تقترب منهم فقال لمن كان حوله:

– "لن يمضي نصفُ ساعة حتى تُدرِكنا سفينةُ أمير الأساطيل."

فقال أحد رجاله:

– "لنستعدَّ إذن للقتال!"

فقال "بلود":

– "وَمنْ لنا بقتال سفينةٍ كبيرة مزوَّدة بالعتاد والرِّجال، ونحن لا نزيد عن عشرين رجلاً؟"

فقال آخر:

– "نرسل إذن إلى أمير الأساطيل شقيقه "دون دياجو" يقنعه بأنَّنا قومٌ مخلصون لصاحب الجلالة ملك إسبانيا".

فوثب "بلود" من مكانه واستنار وجهُه وقال:

– "إنك لعلى صواب... ولكنك مخطئ فيمن نبعثه إلى أمير الأساطيل."

وأمر "بلود" بعضَ رجاله فنزلوا بالأسير الإسباني "دون دياجو" إلى غرفة المدافع، فربطوه إلى فُوَّهة أحد تلك المدافع، ثم أمر فجئ ببقيّة الأسْرى، فلما شاهدوا زعيمهم على تلك الحال، صاح أحدهم مُرَوَّعًا:

– "أبي!"

كان صاحب ذلك الصوت الهالع ابن "دون دياجو" ويسمَّى "دون إسطبان" فأخذ يستغيثُ بالرُّبان "بلود" ويتوسَّل إليه أن يُبقي على حياة أبيه فقال "بلود":

– "لا أنوي أن أرسل أباك يا فتى إلى حيث يستحقّ أن يُرْسَل... إن خيانة أبيك هى التي قرَّبتنا من سفينة عمك أمير الأساطيل الإسبانية... فعمَّا قريب ستصل إلينا، ويسعرف عمُّك عدَدَنا القليل، ولسوف يُصْلِنا نارًا حامية. ومهما كان الأمر، فسوف ندافع عن أنفسنا، ولكن أعلمْ أن أوَّلَ طلقة مِدْفع ترمينا بها سفينة عمك، فسوف نجيب عنها بهذا المدْفع المربوط أبوك إلى فُوَّهَتِه..."

فاضطرب الفتى أيما اضطراب، وقال وقد علته صُفْرةُ الأموات:

– "أما من سبيل إلى تجنُّب القتال؟"

فقال "بلود":

– "هناك سبيلٌ واحدة وهى أن يذهب أبوك "دون دياجو" فيقنع أخاه بأن كلَّ شئ على ما يُرام في هذه السَّفينة... ولكن "دون دياجو"

لا يستطيع الذهاب... لنفرضْ أنه طريحُ الفراش يُعاني وطأة حمَّى شديدة... فلم يبق إلا أن تستقلَّ أيها الفتى أحد الزَّوارق، ويصحبك فيه ستة من رجالكم الإسبان، وأكون أنا بينكم... فإن عدتُ سليمًا إلى هذه السفينة ضمنتُ حياة أبيك وحياةَ بقية الأسرى وإلاّ فإن "دون دياج" سيكون أول ضحية لما قد ينشُب بين السفينتين من قِتال."

صمت "دون إسطبان" قليلاً تتنازعهُ عوامل شَتَّى، ثم أمرّ لسانه على حلقه الجافّ وقال:

- "قبلتُ ما تعرض عليّ يا سيِّدي..."

وبعد برهة قصيرة، كانت السفينتان على مسافةٍ قريبةٍ بينهما، وكان أحد الزَّوارق يسيرُ إلى سفينة أمير الأساطيل وقد حمل "دون إسطبان" و "بلود" وستة رجال من الإسبان كانوا يجذِّفون في همَّة وحماسة، وكان "بلود" قد حمل معه أيضًا صُندوقين مملوءين بالذَّهب ليهديهما إلى أمير الأساطيل وهذان الصُّندوقان هما نصف الجزية التي كان فَرَضَها "دون دياجو" على ميناء "كارليل".

واقترب الزَّورقُ من السفينة، فقفز "دون إسطبان" إلى السلَّم يتبعه الرُّبان "بلود" وكان أمير الأساطيل ينتظرهما على ظهر السفينة، فهجم على ابن أخيه يُعانقه ويقبِّله ثم سأله:

- "وأين أخي؟"

فقال "دون إسطبان" :

– "يعزُّ عليّ أن يُحْرَمَ لقاءَك يا عمَّاه! ولكنه طريح الفراش..."

فقال أمير الأساطيل:

– "إن كان أخي لا يستطيع الحضور إليّ فعلي أن أذهب إليه..."

فتحيَّر "دون إسطبان" ولم يَدْرِ بماذا يجيب، فأنقذ "بلود" الموقف وقال:

– "لا يمكنك يا سيدي أن تَرَى أخاك قبل أن تشفى جراحُه... تلك هى رغبته... على أن يرسل إليك صُندوقين من الذهب كان قد ظَفِرَ بهما في هجومه على أحد الموانئ الإنجليزية، وإنهما في الزَّورق الذي أقلنَّا إليك."

فقال أمير الأساطيل:

– "لا يهمني أن أعرف مصدر هذا الذَّهب، فإنَّما هو وديعة لأخي عندي، بل إنما هو مسألة عائلية أرادني أن أنوبَ عنه فيها، أما أنه سَلَبُ غزوة من الغزوات شنَّها أخي على الإنجليز فما سمتْ أذناي شيئًا من هذا، فالوئامُ والسلام مستتبَّان بين ملك الإنجليز وجلالة ملك إسبانيا... فهل تقبلان دعوتي لشرب كأس من الشراب في مقصورتي ريثما ينقل الرجال الصُّندوقين إلى السَّفينة..."

فقال "دون إسبطان" :

– "طلب إلينا والدي أن لا نتأخَّر، فهو مضطرٌّ إلى استئناف السفر سريعًا، فاسمح لنا يا عماه بالرُّجوع..."

فأذعَنَ العمُّ لرجاء ابن أخيه، فودَّعَهُ وقبَّلهُ ثم تقدم "بلود" من أمير الأساطيل وحياه تحيةً طويلة، ثم استقلَّ الرجلان وصحْبُهما الزَّورق، وعادوا جميعًا إلى سفينتهم.

وقُبَيْل أن يبتعد الزَّورق من سفينة أمير الأساطيل سمع "بلود" صفيرًا صادرًا منها، أعقبه ضجَّةٌ كبيرة هي ضجَّة الاستعداد للرَّحيل، وما هي إلا دقائق قليلة حتى نشرت السَّفينة أشْرِعَتها وسارت تخترقُ الأمواج.

وصل "بلود" وصحبه إلى السفينة "سنكو لاجاس" فكان في استقباله أحدُ رجاله الذي عينه مساعدًا له، فما كاد يطأ بقدمه ظهر السفينة ويتبعه "دون إسطبان" حتى سأل متلهِّفًا:

– "ما حال "دون دياجو"؟"

وكرَّر "دون إسطبان" السؤال وقال له جازعًا قَلِقًا:

– "أجل أين أبي؟ هل نكثتم يا قومُ عهدكم؟"

فقال مساعد "بلود":

– "لم ننكث عهدنا... إن "دون دياجو" قد أسْلَمَ الرُّوح قبل أن تصلوا أنتم إلى سفينة شقيقه."

فصاح الفتى "دون إسطبان":



– "أَسْلَمَ الرُّوح؟!"

فقال "بلود":

– "نعم لقد مات من الخوف والفَرَق... إني لحظتُ ذلك على وجهه قبل أن نغادر السَّفينة... ألم تلحظ أنت ذلك يا "دون إسطبان"؟"

فقال "دون إسطبان" غاضبًا متوعِّدًا:

– "لو كنتُ لحظتُ ذلك لكنْت الآن يا سيِّد "بلود" مشنوقًا على سارية من سواري سفينة عمِّي. ولكن لعلَّنا نلتقي فيها يومًا من الأيام."

وفي مساء ذلك اليوم، عقد الثُّوّار اجتماعًا برياسة الرُّبان "بلود" وقرَّروا أن يسيروا بسفينتهم إلى جزيرة السُّلحفاة ملجأ القرصان، لأن جزيرة "كوراسو" لا تزال بعيدة، وليس لديهم من الزاد ما يمكِّنهم من الوصول إليها.

وقرَّروا كذلك أن يُنْزِلُوا الأسرى وعلى رأسهم "دون إسطبان" أحد الزّوارق، ويتركوهم إلى مصيرهم، بعد أن تجتاز السفينة نَحْوًا من عشرين ميلاً من ذلك الميناء...

وبعد يومين كانت السفينة "سنكو لاجاس" تدخل ميناء "كايانا" في جزيرة السُّلَحفاة.



٦

كانت جزيرة السُّلحفاة إحدى الجُزُر التابعة لفرنسا، وكان ميناء "كايانا" ملجأ حصينًا للقراصنة يلتجئون إليه، وكانت فرنسا تساعدهم سرًّا على غزو السفن الإسبانية وسلْبِها.

ولَمَّا وصل "بلود" إلى ذلك الميناء كان جُلُّ همِّه أن يجد سفينةً قاصدةً إلى فرنسا أو هولنْدا، فيركبها ويرحل إلى أحد هذين البلدين، ولكنه مكث ينتظرُ اسابيع طويلة دون جدوى، حتى نَفِدَت مواردُهُ، وأخذ اليأس يَدِبُّ إلى فؤاده...

وما برحتْ صورةُ الفتاة "أرابلا" تملأُ قلبَه وذهْنه وخياله، غير أنّه ما كان يأملُ لحظة واحدة أن تشاطره "أرابلا" حبّه وهيامه، وهذا

ما كان يدعوه إلى الرَّغبة في الرَّحيل إلى أوربًّا لينساها.

ألَحَّ الثُّوّار على "بلود" أن يبقى معهم، ويكون زعيمهم، وأقسموا له بالأيْمان المغلظة أن يطيعوه طاعة عمياء، وأن يتبعوه حيث أراد.

وقبِلَ "بلود" ذلك العَرْض بعد مقاومةٍ عنيفة بينه وبين نفسه، وكان خيال "أرابلا" نصْبَ عينيه وهو يفكِّر في شأنه، وكان يعرف أنها ستحتقره وتزدريه يوم تعلم أنه أصبح قُرْصانًا، فحمله خيالُ تلك الفتاة النَّبيلة، حين قرَّر أن يعتنق ذلك المصير، إلى أن يُقْسِم لنفسه ليكونَنَّ عفيف الأهواء، فلا يرتكب إثمًا ولا يقترف جريمة على غير طائل.

وهكذا انقلب الطبيب "بلود" إلى قُرْصانٍ من قراصنة البحر، وخاض غِمارَ الغزو والمغامرة.

وكان الحاكم الفرنسيّ للجزيرة، يتناول على حمايته القراصنة بعض الجزية منهم، كما كان يشاركهم في غنائمهم وأسْلابهم، فعرض على "بلود" مبلغًا من المال لتسليح سفينته "سنكو لاجاس" فقَبِل وسمَّاها "أرابلا" وأضاف إلى رجاله ستِّين قُرْصانًا انتقاهم من تلك الجزيرة، وأخذ عليهم الشُّروط التي أراد، فانخرطوا في سِلْك خدمته.

وفي أواخر شهر ديسمبر انطلق "بلود" يجوب بسفينته البحار، ويستسلم إلى الغَزو والنَّهب. ولما عاد إلى جزيرة السُّلحفاة في شهر مايو من السنة

التالية محمَّلاً بالغنائم، كان صَدَى شجاعته وبطولته وأعماله الباهرة قد سبقه إلى الجزيرة، بل كان ذلك الصَّدَى قد تجاوز البحار فوصل إلى أوربَّا، وأصبح حديثَ الناس وشُغْلَهم الشَّاغل، حتى إن سفير إسبانيا في لندن قد احتجَّ إلى الحكومة على أعمال "بلود" فقيل له إن الرُّبَّان "بلود" ليس من عُمَّال ملك بريطانيا، وإنما هو ثائرٌ عَبَدٌ هارب، فكلُّ عمل تعمله الحكومة الإسبانية في سبيل الضرب على يديه، يؤيِّده الملك جاك الثاني.

وكانت هذه الأخبار تصل إلى "بلود" فلا يحفِلُ بها. كذلك وصل إليه أن "دون إسطبان" وعمه أمير الأساطيل قد أقْسما على أن يأسراه حيًّا، ويشنقاه على سارية من سواري سفينة الأمير، فما اكترث "بلود" لكلّ تلك الأنباء.

وعاد "بلود" إلى جزيرة السُّلحفاة ليصلح ما أصاب سفينته من عَطَب، فبينما هو في يوم من أيام جالسٌ إلى اثنين من رجاله في إحدى الحانات، إذ تقدَّم منه رجل، في رِداءٍ أحمر، مزيَّن بالأوسمة المرصَّعة بالذهب وقال له:

– "أأنت المدعوّ "بلود" ؟"

فحدَّق "بلود" في الرجل قبل أن يجيبه، فرآه طويل القامة، مفتول السَّاعدين، قويَّ الأجْلاد، خفيف الحركة، قد وضع كفَّه على مقبضِ

سيفه، ويتألّق في إصبعه خاتم من الألماس باهرُ الشّعاع. فلما فرغ "بلود" من التّحديق فيه قال له:

– أجل أنا "بطرس بلود". "

فلم ينتظر الرجل الغريب حتى يأذن له "بلود" في الجلوس، بل جلس إزاء "بلود" وقال له:

– "أنا "لوفسُّور" ولعلك سمعت بي قبل اليوم!"

وكان "بلود" ورفيقاه يعلمون أن "لوفسُّور" هذا رُبّان سفينة ذات عشرين مدفعًا، جاءت قبل مجيئهم بعدّة أيام، وكانوا يعلمون أيضًا أن ملاّحيها هم من الفرنسيين الذين طردهم الإسبان من جزيرة "إسبانيولا" وأن ربّانهم هذا مشهور بالشجاعة والقوّة والجرأة، حتى أنه طلب يد الآنسة "مادلين" ابنة حاكم الجزيرة المسيو "أوجيرون" فطرده أبوها، فأقسم ليتزوَّجَنَّ ابنة الحاكم ولو اتَّحد عليه جميعُ الآباء في العالم.

هذا هو الرجل الذي جاء يقترحُ على "بلود" أن يكون شريكه في السَّرَّاء والضَّرَّاء، وفي الغَزْو والنَّهْب. فلم يجبه "بلود" لأوّل وَهْلة إلى ما طلب، بل وعده أن يفكر في الأمر، ذلك أنه قد شعر نحو هذا الرجل بكراهية طبيعيّة لم يعرف سببها، غير أن عَرْضَه السخِيِّ، وضَمَّ قوَّاته إلى قُوَّات "بلود" ليس بالأمر الذي يُرْفَضُ دون تَرَوٍّ ولا تفكير.

ومضى على هذا اللقاء أسبوع كانت المفاوضات فيه دائرة بين

الرّجلين، حتى انتهيا إلى الاتفاق والتَّوقيع على عقدٍ بينهما يشرك الرُّبَّانين ورجالهما في المغامرة واقتسام الأسلاب.

وفي صباح اليوم الذي اتّفق الرّجلان فيه على الإبْحار، كان "لوفسّور" يتمشَّى على ظهر السفينة "الصاعقة" فرأى زورقًا يقتربُ من السفينة، ويصعد منه إليها عبدٌ أسود يطلب مقابلة الرُّبَّان، فلما مَثَلَ بين يديه، قَدَّمَ إليه رسالة، ففضها وهو مبتسم وقرأ فيها ما يلي:

"يا حبيبي

أنا على ظهر السفينة الهولندية "يونجرون" التي ترفع مرساتها استعدادًا للسفر. إن والدي يرسلني إلى فرنسا في صحبة أخي ليحول بيني وبينك إلى الأبد، فأنقذني يا بطلي العزيز

حبيبتك المحبة الأسيفة

مادلين"

وبينما كان العبد ينزل سلَّم السفينة عائدًا إلى زورقه، كان "لوفسّور" قد انتهى من قراءة الرسالة، فأجال بصره في الميناء فوقع على السفينة الهولندية، فرآها قد نشرت أشرعَتها، وأخذت تبتعد رويدًا رويدًا عن الميناء، فَجُنَّ جنونُه، وصاح في رئيس الملاَّحين:

– "ليذهب كلٌّ إلى مكانه فقد عزمتُ على المسير..."

وشعر "لوفسّور على الأثر بِيَدٍ توضع على كَتِفه، وبصوتٍ

يقول له:

- "على رِسْلِك يا سيِّدي!..."

فالتفت "لوفسُّور" فرأى معاونه ينظرُ إليه نظرةَ المحتجِّ المعترض، وسمعه يتابعُ كلامه ويقول: "سفينة هولنديّة؟! هذا مُحال."

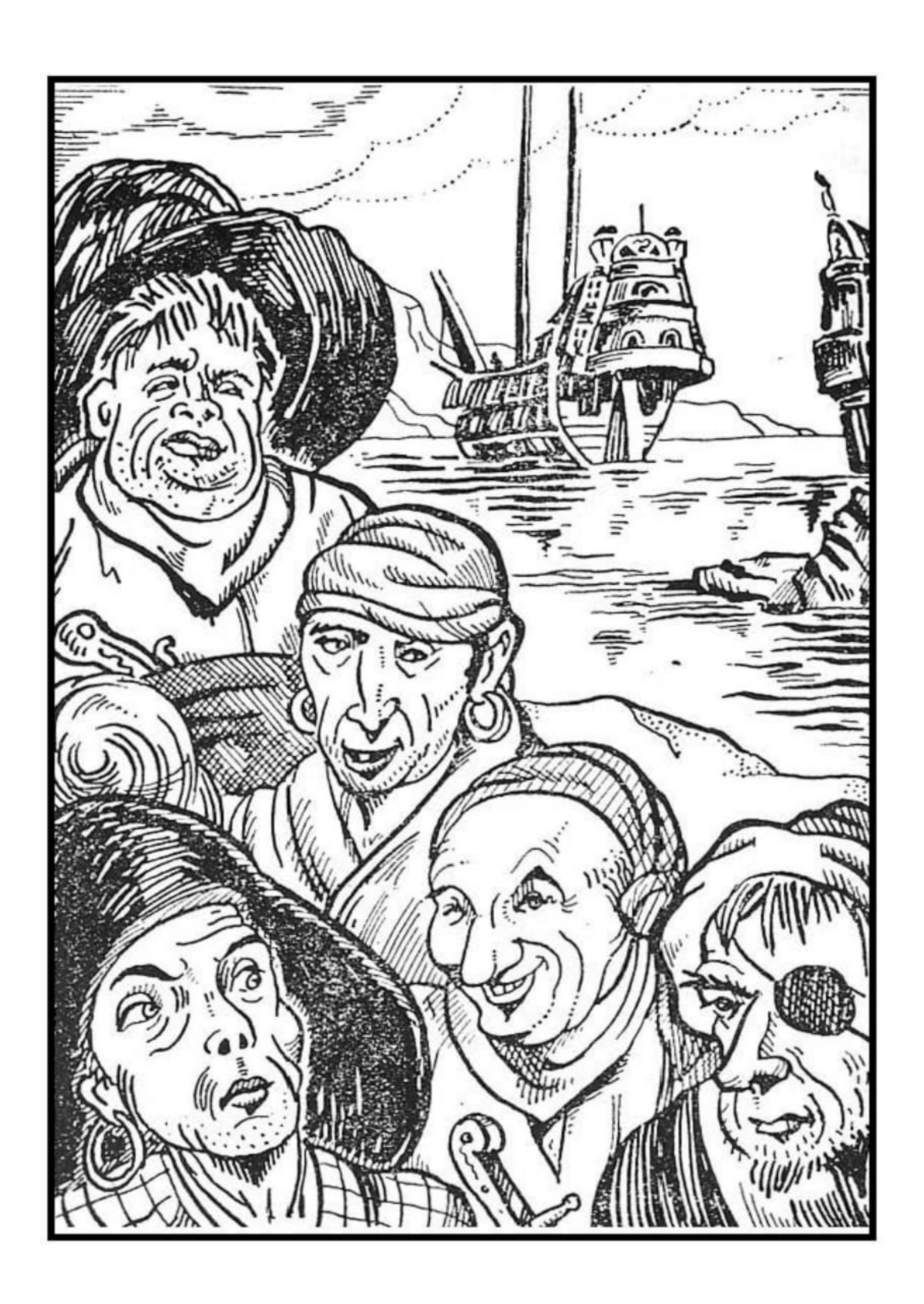
فصاح فيه "لوفسُّور" وهو ساخطٌ حانق: "ومن ذا الذي يمنعنا؟"

- "جميع ملاَّحي السفينة الذين يؤثرون العودة إلى هذا الميناء وهم سالمون غانِمُون... ثم لا تَنْس أنّ هناك الرُّبَّان "بلود"

- "ما كنت لأحْفِل بهذا الأبْله..."

وبعد قليلٍ سارت "الصاعقة" تتبعها "أرابلا" فإن الرُّبَّان "بلود" لما رأى شريكه قد رفع المرساة وهمَّ بالمسير، حذا حذْوَه دون أن يسأله عن السَّبب. واستمرت السفينتان تسيران وراء السفينة الهولنديّة طول النهار والليل، حتى ضربت السفن الثلاث في عرض البحر.

وأشار "لوفسُّور" على "بلود" أن يعرِّج إلى اليمين، ويتوجّه إلى بعض الجزر، وينتظره هناك ففعل. وعند الفجر كانت "الصاعقة" على بُعد ميلٍ واحدٍ من السفينة الهولندية، فأدرك رُبان هذه أنه هدفٌ لبعض القُرْصان، فزاد من سرعة سفينته طالبًا للهرب، غير أن "الصاعقة" كانت أقوى أشرعةً فسبقتها ثم استدارت إليها وباغتتها بإطلاق قذيفة عليها، فجاوبتها السفينة الهولندية بطلقاتٍ عدَّة من مدافعها، ثم التحمت السَّفينتان، فخفّ "لوفسُّور" ومعاونه إلى



السفينة الهولندية يبتعما عددٌ من الملاحين، فصاح الربان الهولندي في وجه "لوفسّور" وقال: "أيها السيد "لوفسّور" إنّ عملك هذا إهانة لا تغتفر! ماذا جئت تطلب في سفينتي؟"

فحدَّق "لوفسُّور" في الرُّبان الهولندي، وفي الفتى الذي وقف وراءه، فعرف فيه ابن الحاكم "أجيرون" فقال:

– "جئتُ أطلب ما أبتغي... وبما أنَّك قد دافعتّ عن نفسك فإني أعُدُّ سفينتك غنيمة شرعية من غنائم الحرب."

وفي هذه الأثناء بَدت الآنسة "مادلين" في شُرْفة مقصورتها وهي تنظرُ إلى بطلها نظرات الإعجاب، فرآها "لوفسُّور" فصاح فرحًا وطار إليها، فاعترض رُبَّان السفينة طريقه، فعاجَلَه "لوفسُّور" بضربة ساطور على أمِّ رأسه جدَّلته صريعًا، ثم قفز من فوق الجثة وخف إلى حبيبته.

وكانت هذه قد شاهدت ذلك المنظر الفظيع؛ فاضطربت من رأسها إلى أخمص قدَمها، فلما وصل إليها "لوفسُّور" وحاول أن يضمَّها إلى صدره، وقفَتْه وبادرته قائلة: "لماذا قتلته؟!"

– "أراد أن يحولَ بيني وبينك فاستحقَّ الموت..."

وطغَى الحبُّ على فؤاد الفتاة، فأغمضت عينها مستسلمةً حينما حملها "لوفسّور" بذراعيه، وسار بها إلى سفينته. وكان معاونه قد ربط الفتى

"أوجيرون" بالحبال، ورماه في إحدى الزوايا من "الصّاعقة" وعاد إلى السفينة الهولندية، وألزم بحّارتها أن يستقلُّوا الزّورق الكبير، ويسيروا في حراسة المقادير، واستبدل بهم نفرًا من رجاله أحلَّهم في السفينة الهولندية محلَّ بحّارتها، ثم سارت بعد قليل وراء "الصاعقة" التي عادت أدراجها في طريقها إلى جزيرة العذراء.

ألقى "لوفسّور" بكل هذه الأوامر إلى معاونه عندما كان سائرًا بالفتاة "مادلين"، فلمّا أوصلها إلى الحجرة التي خصّصها بها، وهمَّ بتقبيلها، كانت الفتاة قد أدركت خطأها الجسيم، وعرفت أن حبيبها هذا ليس إلا وَحْشًا مفترسًا، فاقشعرَّ بدَنُها، وأخذت تدفعه عنها بيديها وهى تَجْهِش بالبكاء.

وسَمع في تلك اللحظة قَرْعٌ على باب الحجرة، فسار "لوفسّور" إلى الباب وهو يزمجر، ففتحه فإذا بالقادم معاونه جاء يخبره أن بالسفينة بعض الثّغرات ينفذُ منها الماء إليها، وأن جزيرة العذراء وإن تكن قد لاحتْ في الأفق فهو يخشى مع ذلك أن لا تستطيع السفينة الوصولَ إليها.

فخرج "لوفسّور" مع معاونه وصَعدا إلى سطح السفينة، فهالهما أن يلمحا عن بعد سفينتين مقبلتين إليهما، فكتم "لوفسّور" أنفاسه خوفًا وخشية فقال له معاونه: "وماذا نعمل لو جاجمتنا هاتان السّفينتان؟"

فقال "لوفسُّور" : "نقاتلهما..."

وبعد مسيرةِ ساعة، همَّ "لوفسُّور" أن يأمر رجاله بالاستعداد للقتال، فأخبره برجُ المراقبة أن إحدى السفينتين هى "أرابلا" فتنفَّس "لوفسُّور" الصُّعداء. أما معاونه فلم يرتح لذلك الخبر فحدَّق في رئيسه وقال له: "ماذا نحن قائلون للرُّبَّان "بلود" ؟"

– "لا شئ."

– "ولكن سوف يعلم كُلَّ شئ..."

– "لن يعلمَ شيئًا قبل إتمام المفاوضة مع الفتى "أوجيرون"

ولم تنقضِ نصفُ ساعة على هذا الحديث حتى كانت السفن الأربع تطرح مراسيَها في ميناء جزيرةٍ قفراءَ جرداءَ هى جزيرة العذراء.

استقل "لوفسُّور" أحد الزَّوارق، فسار به إلى السفينة "أرابلا" في صحبة معاونه ورجلين من رجاله، فاستقبله "بلود" مسرورًا ضاحكًا، وقاده إلى مقصورته، وأعْلمهُ أن السفينة التي تصحبه هى السفينة الإسبانية "سنتياجو" وأنه أسرها واستولى على ما فيها من غنائم، وسوف يقاسمه تلك الغنائم وفقًا لما بينهما من شروط.

على أن الرُّبَّان "بلود" قطَّبَ حاجبَيْه لما علم أن شريكه قد هاجم سفينةً هولندية، ولكنه استسلم بعد قليل إلى الأمر الواقع، ثم اتّفق الشَّريكان على أن يغادر "بلود" الميناء، ويذهب بالسفينتين "أرابلا" و "سنتياجو" إلى جزيرة السلحفاة وعلى أن يلحق به شريكه حالما ينتهي من إصلاح سفينته.



٧

استيقظ "لوفسُّور" في صباح اليوم التَّالي على جوٍّ صحْوٍ جميل، بعد عاصفة هوجاءَ استمرّت طولَ الليل، فعَقد على باب خيمته مجلسًا حربيًّا اشترك فيه رجاله.

وفي أثناء الأحاديث المشتركة بين هؤلاء المتآمرين، جاء عبدان بالفتى "أوجيرون" وهو موثوقُ اليدين، في حين كانت شقيقتُه جالسةً فوق الرِّمال على بُعْد من هؤلاء الرجال الغِلاظ، وسيماؤها تدلُّ على ما تعاني من شعور الخوف والقلق، فابتدر "لوفسُّور" الفتى وقال له:

– "لعلَّك فهمت يا فتى ما أطلب إليك... سوف أُطْلِقُ سراحك

وأمكنك من الوصول إلى أبيك، ولكن على أن تعوندَ إليّ بالجِزْية التي أطلبها، وقدرها عشرون ألف قطعة من الذّهب... وسأحتفظ بشقيقتك رهينة عندي حتى ترجع..."

فرفع الفتى رأسه وحدّق طويلاً في ذلك القُرْصان الجريء وقال له:

– "أرفضُ ما تطلب، فإنما أنت قُرْصان لا شرفَ لك ولا ذِمَام."

فقال "لوفسّور":

– "أنسيتَ أيها الغلام أنّي أستطيع إسكاتَك وإخضاعك لما أريد؟"

– "كلاَّ وألف مرّة كلا فما أنا من يَقْبلُ ما تعرضه عليّ."

فنظر إليه "لوفسّور" شزرًا، وكان في يده حبلٌ غليظٌ يلهو به، فأخذ يجيل طَرْفه بين الحبْل وعُنُق الفتى في وحشية وقسوة، واتَّفق أن رأته الفتاة وأدركت ما يجول بخاطره، فتملكها الرعب، وفَلَتَت منها صيحةٌ جازعة، وخانتها قواها فانطرحتْ إلى الأرض.

واستأنف "لوفسّور" الحديث وقال:

– "كُنْ بصيرًا رشيدًا يا فتى، فما قيمة بملغ من المال لا يتجاوزُ عشرين ألف قطعة من الذهب؟... إن ثروة أبيك طائلةٌ ضخمة، واحمد الله على أني لم أغالِ في الطلب."

وما إن لفظ كلمته الأخيرة، حتى سمع الحاضرون صوتًا ساخرًا يقول:

– "ولماذا تطلبُ منه عشرين ألف قطعة من الذهب؟"

فالتفت "لوفسّور" ورجاله إلى مصدر الصّوت، فرأوا على قمّة تلٍّ من التلال القريبة منهم، رجلاً يرتدي الملابس السود المخطّطة بالفضّة، وعلى رأسه قُبَّعَة عريضة تخفقُ فوقها ريشةٌ حمراءُ طويلة، فأمعنوا النّظر فيه فإذا هو الرُّبّان "بلود".

فوثب "لوفسُّور" واقفًا، وقد عقدت الدهشة لسانَه، فانحدر "بلود" إليه، وانحدر معه عشرةٌ من الرِّجال الأشدّاء، فلما اقترب من الآنسة "أوجيرون" حيَّاها برفع قُبَّعَتَه، فنظرت إليه مستغربةً مشدوهة، فتابَع هو سَيرَه إلى حيثُ كان "لوفسُّور" فقال له:

– "صباحَ الخير أيها الرُّبّان!... إن العاصفة قد اضطرَّتنا أن نعود أدراجنا إلى ميناء الجزيرة، فسفينتاي واقفتان على نحو ميلين أو ثلاثة من هنا... ولقد جئنا إليك مَشْيًا على الأقدام، لنقدِّم لك التحية الخالصة. ولكن منْ هذان الأسيران؟ هل رمَتْهُما العاصفة إلى الشاطئ؟"

فقال "لوفسُّور" وقد بدأ يغتاظ من تلك السّخرية والاستهزاء:

– "كلاَّ لم تَرْمهما العاصفة، وإنما كانا على السَّفينة الهولندية."

– "ولكن لا أذكر أنك حدَّثْتَني عنهما."

– "لم أحدِّثك عنهما لأن أمرهما يعنيني أنا، فهما فرنسيَّان مثلي."

– "فرنسيّان؟! أأصبحت تضرِبُ الجِزْية على مواطنيك؟ ولكن منْ هما أسيراك؟" فبادر الفتى فقال:

– ”اسمي يا سيدي ”هنري أوجيرون“ وهذه شقيقتي.“ فقال ”بلود“:

– ”أتكونان من أسرة صديقي الحميم السيد ”أوجيرون“ حاكم جزيرة السُّلحفاة؟“ فقال الفتى:

– ”إنه والدي يا سيِّدي“ فصاح ”بلود“ في ”لوفسُّور“:

– ”أجُننْتَ أيها الرجل؟ هاجمتَ سفينة هولندية واستوليت عليها. ثم أسرت ابن حاكم جزيرة السُّلحفاة وابنته، وأنت لا تجهل أن هذه الجزيرة هي ملجؤنا الوحيد؟“ فقال ”لوفسُّور“:

– ”قلت لك إنها مسألة تَعْنيني أنا وَحْدي.“

– ”والجزية التي تطلبها أتَعْنيك أنت وَحْدك؟“

– ”أجل.“

– ”ما أنا مَنْ يوافقك على هذا، فالتِّفاق معقود بيننا على أن نتقاسم الغنائم، ولكنَّ الأخطر من هذا كلِّه أنك أخفيتَ عني هذه الغنيمة، وما إخالُك نسيت العقوبةَ المقررة على مثل هذا التصرُّف.“

فضحك ”لوفسُّور“ ضحكةً كلها لُؤْمٌ ونفاق وقال:

– ”إذا كان سُلوكي لا يعجبك فما علينا إلا أن ننفصل.“

– ”وهذا ما أنْويه، ولكن يجب أن نسوِّي الحساب بيننا قبل أن ننفصل، فقد فرضت جزية قدرُها عشرون ألف قطعة من الذَّهب، لإطلاق سراح الفتى والفتاة، فمن حقِّي أنا نصْفُ هذا المبلغ، فادفعه لي



إن شئتَ أن تحتفظ بالفتاة." فقال "لوفسُّور" متضايقًا:

– "ومن أين آتيك بهذا المبلغ الجسيم، بل من يستطيع أن يدفعه؟"

– "يدفعه كلٌّ من أراد أن يحتفظ بالفتاة رهينةً على مثل ذلك المبلغ... وقد أكون ذلك الرجل."

وأخرج "بلود" من جيبه كيسًا صغيرًا مملوءًا باللآلئ الكبيرة، فنادى معاون "لوفسُّور" وأراه إيَّاها، وطلب منه وهو الخبير باللآلئ والجواهر أن يقدِّر لها ثمنًا، فقدَّر ثمنها بمبلغ يزيدُ عن المبلغ المطلوب فقال "بلود":

– "إنّ نصف عدد هذه اللآلئ من نصيب بحّارة "الصاعقة" فها هي ذي، أما الباقي فمن نصيب بحارة "أرابلا" وسأعرف كيف أوزعها بينهم."

ثمَّ التفت إلى أحد رجاله وقال:

– "تستطيع أن تقود الأسيرين إلى السفينة "أرابلا"."

فاستولت على "لوفسور" سَورةٌ من الغضَب والحنق، فاقترب من "بلود" وكفُّه على مقبض سيفه وصاح فيه:

– "لن تأخذهما وأنا حيٌّ أرْزَق." فقال "بلود":

– "سوف يمضيان إلى السفينة إذن بعد أن تموت... إنّ إخفاء الغنائم أمرُ عقابه الشَّنْق، ولكن إذا كنت تُؤْثِر أن تموت والسيف في يدك فأنا رَهْنُ إشارتِك."

وفسَحَ الرجال في المجال للرَّجُلين، فتصاوَلا في مبارزةٍ عنيفة خرَّ "لوفسُّور" على أثرها جثةً هامدة.

والتفت "بلود" إلى معاون "لوفسُّور" وقال له:

- "إنَّ موت سيّدك يُلْغي العقد القائم بيننا، فيمكنك أنت وبقية رجالك أن تأتوا معي إلى السفينة "أرابلا" لأقاسمكم الغنائم التي كسبناها من السفينة "سنتياجو"، فإن شئتم أن تعملوا معى فأشترط أولاً إرجاع السفينة الهولدنية إلى أصحابها." فَقَبِلَ رجال "لوفسُّور" العرض، وما فكَّر واحد منهم في الثَّأر لسيدهم لأنهم كانوا يخافونه ولا يُحبُّونه.

ومضى "بلود" إلى الغرفة التي أوى إليها الفتى "أوجيرون" وشقيقته في السفينة "ارابلا" فانحنى مسلِّمًا وقال:

- "أرجو منك يا آنسة أن لا تخافي ولا تجزعي، وأن تنْسي أنِّي اشتريتك بمال، فما حملني على هذا إلا صداقتي لوالدك، ويسعدني أن أعيدَك وأخاك إلى جزيرة السُّلحفاة في أقرب فرصة." فقال الفتى "أوجيرون":

- "أتقول الحق يا سيدي؟!" فقال "بلود":

- "لا عليك يا فتى، إنك لتَعُدُّني قُرْصانًا من القراصنة، وإنك لكذلك وإن كنتُ أختلف عن "لوفسُّور" وأخلاقه."

وانحنى مسلِّمًا يريدُ الانصراف، فتقدَّمت الفتاة منه وقالت:

- "عُذْرًا يا سيدي إن شككنا في نُبْلِ عواطفك."

- "لا حرج عليكما، فمن حقّكما أن يخالجكما الشَّك والارتياب."

وزفر "بلود" زفرةً طويلة، فقد تمنى في قرارة نفسه أن تعلم يومًا "أرابلا" أنّه تصرَّف تصرُّف الشُّرفاء حبًّا لها، وتقديسًا لتذكارها.



٨

في شهر أغسطس من سنة ١٦٨٧ سار الأسطول الصغير بقيادة الرُّبَّان "بلود" إلى شواطئ "فنزويلا"، وكان "بلود" بمعاونة صديقه حاكم جزيرة السُّلحفاة قد أضافَ إلى رجاله خمسمائة بحار، ولو شاء المزيد لاستطاع، ولكنه اكتفى بذلك العدد، وجرى به إلى بحيرة "مارا كايبو" فاحتلّ المدينة التي تسمى باسم البحيرة، وكان انتصاره سهلاً يسيرًا فلم يفطن إلى الفَخِّ الذي نُصِب له.

نزل "بلود" إلى المدينة على رأس رجاله، وجال وإياهم في أنحائها، فألْفَى المدينة تكادُ تكون خاليةً من السُّكّان، فقد كانوا هجروها وحملوا

معهم كنوزهم وثرواتهم. ولَحَ السفن الإسبانية متجمِّعة عند مدخلِ البحيرة تحمي ظهرها قلعةٌ كبيرة. وكان "بلود" عندما دخل البحيرة قد ظنَّ أن القلعة خالية من المدافع والرجال، ولكن لو شاء الآن أن يخرج من البحيرة، لأصلته القلعة فضلاً عن السفن الإسبانية نارًا حامية، ولا سيما أن قائد الأسطول الإسباني إنما هو عدوّه اللدود دون "ميجل" أمير الأساطيل، ومعه ابن شقيقه الفتى دون "إسطبان".

جالت هذه المعاني كذلك في رؤوس البحّارة، وأدركوا أنهم وقعوا في فخّ لن يخرجوا منه وهم أحياء، فهمهموا ساخطين متذمِّرين، وكادت الفتنة تلعبُ برؤوسهم فيثورون على قائدهم الرُّبَّان "بلود".

وبرز "بلود" بينهم في الوقت الذي وصل فيه التذمُّر إلى أقصاه، فبكلمة بسيطة هادئة، أخمد نار تلك الفتنة التي كان يُذْكيها معاون "لوفسُّور" القتيل، وأفْهَم رجاله جميعًا أنه لولا رعونةُ ذلك المعاون الذي تلكَّأ في البحار وأخَّرَهم ثلاثة أيام، لكانوا سبقوا الأسطول الإسباني وأصبحوا سادة الموقف. فصاح فيه أحد الرِّجال:

– "ما علينا إذن إلا أن نقبل شروط الأميرال الإسباني فقد وعدنا أن نخرج من البحيرة سالمين إذا أطلقنا سراحَ الأسرى، وأَعَدْنا الغنائم ولم نحرق المدينة." فتبسَّم "بلود" ولم يشأ أن يقول لهؤلاء الرجال إنه لا يثق بالأميرال الإسباني ولا بوعوده. وبعد أن سكت قليلاً قال:

– "لقد أرسلتُ إلى الأميرال أُنْذِرُه وأقول له: إذا انقضت أربع وعشرون ساعة ولم يخرج الأسطول الإسباني إلى عَرْض البحر، بعد أن يدفع لنا خمسين ألف قطعة من الذهب، فإننا سنحرق المدينة ونغرق سفنه."

كان لهذا الكلام الذي لا يقوله إلا رجلٌ شجاع جَسُور، أثرُ السِّحر في نفوس البحارة، فهتفوا لرُبَّانهم مصفِّقين مهللين.

ومرّت المهلة المحدَّدة، فلم يحرِّك الأميرال الإسباني ساكنًا، ففهم "بلود" أنْ لا مناصَ من القتال.

وقضى "بلود" ورجاله ثلاثة أيام في الاستعداد للقتال، فمن إعدادِ المُؤَن، إلى تنظيف السلاح، إلى مَسْحِ المدافع، إلى غير ذلك من تهيئة مُعدَّات القتال.

وفي منتصفِ الليلة الرابعة، سار أسطول "بلود" بسفنه الأربع تحت جنح الظلام، يحاول أن يباغتَ الأسطول الإسباني، ويرميه بالنار، ثم يفرّ هاربًا من مدخل البحيرة الذي يشبه عنُق الزُّجاجة.

وسارت السُّفُن تَمْخُر عُبابَ الماء حتى أصبحت على مَرْمى القذائف من السفن الإسبانية، وكان البحّارة الإسبانيون من أميرهم إلى أصغر عامل فيهم، يغطُّون في النوم إلا عددًا من الحرَّاس كانوا متفرِّقين على ظهر كل سفينة للمراقبة والحراسة.

ولم يقف الإسبانيون هذا الموقف من أعدائهم إلا اعتدادًا بأنفسهم، واحتقارًا لشأن هؤلاء القراصنة، واعتمادًا على ما لديهم من عتادٍ ومدافع

بَلْهَ مدافع القلعة التي تحميهم.

فاجأ "بلود" سُفن أعدائه، ورماها بقذائف اللهَب والجمْر، وصَبَّ على الأخص نيرانه على سفينة الأميرال الإسباني، فمات من الحرَّاس من مات، وهبَّ النِّيام مذعورين، فخفَّ كلٌّ إلى سلاحه وموضعه من القتال، واستطاع الأميرال ورجاله أن يغادروا سفينتهم المحترقة، ويلتجئوا إلى أقرب سفينة منهم ويتحصَّنوا بها.

ثم اشتركت مدافع القلعة في القتال، وأخذت ترمي المهاجمين بقذائف النَّار والحديد، فأصاب عددٌ منها مقدِّمة السفينة "أرابلا" وكادت النيران تأتي على جميع السفن المهاجمة، لو أنها بقيت في أمكنتها أو أصرَّت على المرور من عُنُق الزجاجة.

ولكن الرُّبَّان "بلود" أدرك أن محاولتَه مخفقة كلّ الإخفاق، وأن الخروج من مدخل البحيرة تحت ذلك السَّيْل من النار، إنما هو ضَربٌ من المحال والجنون، فاضطُرَّ أن يكفَّ عن الهجوم، ويعود بالسليم من سُفُنه والمعطوب إلى ميناء المدينة. وكان الفجر قد بدأ يلوح في الأفق، ويرسل نورَه الورديّ إلى مياه البحيرة وما يحفّ بجوانبها من تِلالٍ وغابات، فما حَفَلَ أحد من المندحرين ولا المنصورين بذلك الجمال والبَهاء.

وعُني "بلود" منذ عودته إلى الميناء بإصلاح العَطب الذي لحقَ بسفنه، ومهما يكن من أمر تلك المحاولة الجريئة التي قام بها، وإخفاقه

في الخروج من فم البحيرة، فالخسائر التي ألحقها بسفن العدوّ كفيلةٌ بأن ترجِّح كِفَّتَه في تلك المعركة البحرية، وتعدّه هو الفائز المنتصر.

وفي تأثير ذلك الرأي وإيمانًا به، أخذ "بلود" حالما عاد إلى المدينة واستقرّ في مكتبه من قصر المحافظ، يكتب رسالةً إلى دون "ميجل" هذا نصُّها:

"أعتقد أني أوضحت لكم يا صاحب السعادة في هذا الصباحِ، بأني كنت سيّد الموقف في معركةٍ كنتم فيها أكثر سُفُنًا مني وأوفرَ رجالاً ومدافع. وبعد الخسارة التي ألحقتها بكم سيتعذّر عليكم أن تنفِّذوا وعيدكم أو تضطرُّونا إلى القَبول بشروطكم.

على أنني قبلَ أن أنزل بكم الضَّرْبة القاصمة، أود أن أمكِّنكم للمرة الأخيرة من شروط التَّسليم، فإني أقْبَلُ أن أبْقِي على مدينة "مارا كايبو" فلا أمسّها بسوء، وأن أطْلق سراح الأسرى الذين أسرتُهم فيها، على أن تدفعوا لي خمسين ألف قطعة من الذهب، ومئة رأس من الأغنام، وتفتحوا لي طريق الخروج من البحيرة إلى عرض البحر. وسأحتفظ بأعيان المدينة رهائن لديّ، حتى أخرج من البحيرة ثم أعيدهم إليكم.

فإذا رفضتم هذه الشّروط يا صاحب السعادة فإني سوف أحطّم سفنكم وقلعتكم التي تظنُّونها أمنع من عُقاب الجو، وأهدم مدينة "مارا كايبو" ولا أترك فيها حَجَرًا فوق حَجَر."

واختار "بلود" محافظ المدينة رسولاً يحملُ هذه الرسالة إلى الأميرال

"دون ميجل" فقد كان هذا المحافظ مُشفِقًا على مدينته من الخراب والدَّمار، ولكنه عاد من لَدُن الأميرال يجرِّرُ أذيالَ الخيبة، فقد رفض "دون ميجل" الإنذار، وتوعد بمهاجمة سفن "بلود" وتدميرها في الساعة التي يتلقَّى فيها المَدَد من بقيّة وحدات الأسطول الإسباني.

وشاع أمر تلك الرِّسالة والجواب عنها بين البحارة، فعاد التذمُّر يحتلُّ نفوسهم وصفوفهم، وعاد "كاهو زاك" معاون "لوفسُّور" فيما مضى يُثيرُ الفتنة بينهم ويحملهم على التمرُّد والعِصْيان.

وانتهى الأمر بهذا الذي يُدْعى "كاهو زاك" إلى أن يراسل "دون ميجل" سرًّا، ويلتمس منه السماح له ولنَفَر من الرجال بالخروج من البحيرة، فرضي "دون ميجل" بذلك. واجتمع "كاهو زاك" ونحو من ستين بحَّارًا آثروا الذّهاب معه، فاستقلُّوا السفينة "الصاعقة"، ونهبوا ما استطاعوا نهبه من ذهب ومال، وقبل أن يرفع المرساة جاء إلى "بلود" وقال له:

– أستودعك الله وأتمنَّى لك النَّجاة من هذا المأزق الذي رميت به نفسك." فقال له "بلود":

– "مع السلامة... ولستُ أمنعك حتى من الانضمام إلى قوَّات "دون ميجل". فقال "كاهو زاك" بوقاحة:

– "سوف أقرِّر أنا وزملائي ماذا يجب أن نفعل وإلى مَنْ ننضمّ."

وبعد بضع ساعات من الزمان كان "كاهو زاك" ورجاله تسير بهم

السفينة في عرض المحيط. وجلس "بلود" ونفرٌ من رجاله القدماء الأوفياء، وعلى رأسهم "بت" يتداولون في الأمر، ويقدحون زِنادَ فكرهم في العثور على وسيلة تمكّنهم من مغادرة تلك البحيرة.

وبينما هم على هذه الحال، إذ جاء محافظُ المدينة يلتمسُ لقاء الرُّبان "بلود"، فلما مَثَل بين يديه استحلفه ألاَّ يحرق المدينة، ووعده أن يأتيه في خلال ثلاثة أيام بالجزية التي يطلبها من الذهب والأنعام. فسأله "بلود":

– "وكيف تستطيع الحصول على الجيزة وقد فرَّ كلُّ رجال المدينة."

– "هذا سرِّي يا سيدي، واعذرني إن أنا لم أبُحْ به."

– "ألا تعرف أن لديَّ وسائل تحملك على الكلام."

– "أعرف ذلك ولكنني أعتمد على شرف الرُّبان "بلود"."

– "أتعتمد على شرف قُرصان؟!"

– "كلاّ وإنما أعتمد على شرف الرُّبان "بلود"."

وفي نهاية اليوم الثالث جاء المحافظ إلى "بلود" بالجزية المطلوبة، فوضع الذهب والأنعام في المكان المُعَدِّ لكلٍّ منهما، وذُبحَت بعض رؤوس من الغنم وطُبخت، فأكل البحارة منها واستسلموا إلى وليمةٍ شهيّة.

وبعد أيام قلائل جاءت الجواسيس من سكان الجزيرة تقول للرُّبان "بلود" إن الإسبانيين قد نزعوا المدافع من السفينة المعطوبة، ونقلوها إلى القلعة ليزيدوها تحصينًا، فشاء "بلود" أن يتحقق هو نفسه من شأن



تلك القلعة ومقدار تحصينها، فانتظر حتى هبط الظلام، ثم استقلّ وحده قاربًا من القوارب وسار به إلى أحد الشواطئ البعيدة من الجزيرة، ومن هناك توغّل في الغابات وصَعَّد في التلال فوصل إلى مقربةٍ من القلعة، فتوارى وراء إحدى القمم بحيث يَرَى ما يجري بداخل القلعة ولا يُرى. وفي ضوء الفجر المنبثق، وقف على ما يهمّه الوقوفُ عليه من أمر تلك القلعة، ثم تسلَّلَ عائدًا إلى قاربه في الطَرف البعيد من الجزيرة، ورجع به إلى المدينة.

ولما اجتمع بأركان حربه، قَصَّ عليهم ما شهد ورأى، وأخبرهم أنه قرَّر أن يستولى على القلعة، وأن يهاجمها من طريق البرّ، فناقشه صديقه "بت" في تلك الخُطَّة الجريئة، وعَدَّها ضربًا من العَبَث والمُحال ولو أنه لم يتعوَّد أن يخالفه أو يناقشه في رأيٍ من الآراء أو في خُطَّة من الخُطط.

وعلى حين فجأة وثب الرُّبان "بلود" من مكانه، ولمعت عيناه بنورٍ غريب، وانبسطت أسارير وجهه، وصاح في رفاقه:

– "لقد وجدتُها... لقد وجدتُ الخُطّة التي تمكّننا من الخروج إلى البحر، وأنوفُ أعدائنا مُرْغمَة..."

فاشرأبَّت إليه الأعناق، وشَخَصَت الأبصار، وكَتم الرجال أنفاسَهم حتى لا يفوتهم شيءٌ من دقائق تلك الخُطة بعد إذ شَرحَها لهم فوافقوا عليها بإجماع الآراء. وقضى القومُ طولَ ذلك اليوم في الاستعداد للرحيل، وفي

صباح اليوم التَّالي سارت السفن الثلاث في طريقها إلى مدخل البحيرة.

ورأى "دون ميجل" تلك السفن مقبلةً إليه، فَفَرك هو وابن أخيه أيديهم فرحًا واغتباطًا، وعلَّل النَّفْس بقُربِ ساعة الانتقام، فأصدر "دون ميجل" أوامره إلى جنود القلعة بأن يكُونوا على أهبةٍ واستعداد.

ولشَدَّ ما دهش "دون ميجل" ودهش معه رجالُه لما رأوا أن السفن الثَّلاث لم تتابع سيرها إلى مدخل البحيرة، بل عرَّجَت غَربًا إلى أحد الشواطئ التي لا تتناولها قذائفُ القلعة، وهناك ألقت المراسي، ثم أنزلت جميع القوارب إلى البحر، فامتلأت بالجنود وسارت بهم إلى الشاطئ، فنزلوا منها وتوغَّلوا في الغابات. وعادت القواربُ إلى السفن، ثم رجعت إلى الشاطئ محمَّلةً بالرجال والعَتاد، وكرَّرت ذلك بضْعَ عشرةَ مرة حتى وثق "ميجل" كلَّ الوثوق أن الرُّبان "بلود" قد عزم أن يهاجمه من البر ليستولى على القلعة، فصاح فيمن حوله:

– "إنّ هذا الأحمق قد قرر مهاجمتنا من البرّ... مَنْ قال إن بحَّارته لا يزيد عددهم عن خمسمائة بحار؟ لقد نزل منهم إلى الشاطئ أكثر من ألف، ولا تزال القوارب تروح وتغدو بين السفن والشواطئ... هيَّا جميعًا إلى القلعة..."

ونزل رجالُ الأسطول الإسباني، إلى البرّ يتقدَّمهم "دون ميجل" و "دون إسطبان"، وسارعوا إلى القلعة، وأقرّ الأميرال أن تحوّل فُوَّهات

المدافع وتوجه إلى البرّ، فانكبَّ الجنود على ذلك العمل، وقضوا فيه وقتًا غير قصير، فلما أتمُّوه تبسم "دون ميجل" وقال:

– "سنحصدهم الآن حَصْدًا... لقد أوغلوا في الغابات على أَمَل أن يفاجئونا، ولكنهم لا يعرفون أننا لهم بالمرصاد."

وفاتَ "دون ميجل" ورجاله أن يعلموا جليَّة الأمر، فالقوارب عندما كانت تعودُ إلى السفن، كانت تعودُ بالرجال منبطحين إلى بطونهم، حتى إذا وصلت إلى السفن، استدارت إلى الجهة التي لا تُشْرف عليها القلعة، فصعدَ منها الرجال دون أن يلمحهم أحدٌ من رجال العدوّ.

وهكذا انطلت الحيلةُ على "دون ميجل" فحوّل اتجاه فُوَّهات المدافع ظنًّا منه أن الرُّبان "بلود" سيهاجمه من البرّ، فحدِّثوا عن دهشته ولا حرج، لما رأى السفن الثلاث قد رفعت مراسيها، وجرت إلى مدخل البحيرة، وخرجت منه سالمة، بعد أن صبَّت القذائف على سفنه فأغرقتها.

وصحا الإسبانيون قليلاً من أثر المباغتة والدَّهشة، فهَبُّوا يُعيدون فُوَّهات مدافعهم إلى اتجاهها الأول، ويُطلقون القذائف على السُّفن الهاربة، ولكن تلك السفن كانت أبْعَد من أن تُدركها القذائف.

وفي عرض البحر لقى أسطول "بلود" سفينة إسبانية كانت مُجِدّة في السَّيْر إلى بحيرة "مارا كايبو" فاستوقفها وجَرَّدَها من كنوزها، واسترجع منها الأَسْرَى، وكان في مقدمتهم "كاهو زاك" والرِّجال الذين هربوا معه...



٩

كانت موقعة "ماراكايبو" عملاً باهرًا من أعمال الرُّبان "بلود" فطارت له سُمْعةٌ عظيمة، أخذت تنتقل من بحرٍ إلى بحرٍ، ومن جزيرةٍ إلى جزيرة، حتى وصلت إلى جميع أنحاء أوربا.

وترتّب على تلك الموقعة مراسلاتٌ دبلوماسيّة بين بَلاط "لندن" وبَلاط "مدريد" فتنصَّلت "لندن" من الرُّبان "بلود" ومن أعماله، ولم تعد نفسها مسئولة عن عمل قُرْصان من القراصنة.

أما "دون ميجل" فقد عنّفه المجلس الأعلى للأسطول تعنيفًا شديدًا، فأخذ يجدّ في البحث عن الرُّبان "بلود" ليظفر به حيًّا أو ميتًا، فيرضى عنه المجلس الأعلى ويشمله ملك الإسبان بعفوه.

وانقضت سنةٌ على هذه الحوادث، حتى كان اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٦٨٨، وكانت ثلاث سفن في ذلك اليوم يحتويها بحر "الأنتيل": كانت الأولى السفينة "أرابلا" متجهة إلى جزيرة السُّلحفاة بعد أن أبعدتها العواصفُ والزَّوابع عن شقيقاتها.

وكانت الثانية سفينةً إسبانيّة معقودة اللِّواء للأميرال "دون ميجل" وكانت إلى الجنوب الغربي من شبه جزيرة "إسبنيولا".

وكانت الثالثة سفينة إنجليزية راسية في ميناء فرنسي يسمَّى "القديس نقولا" ويقع في الشَّمال الغربي من شبه جزيرة "إسبنيولا". وكانت هذه السفينة في طريقها إلى "الجامايك" وفوق ظهرها اللورد "جوليان ويد" ابن عمة رئيس الوزراء قد أرسله في مهمة دقيقة خطيرة.

وكان حاكم "الجامايك" في تلك الآونة الكولونل "بيشوب" اختارته الحكومة الإنجليزية لذلك المنْصِب لما تعرفه عنه من قَسوَةٍ وصَرامة، فقبل هو ذلك المنصب على أمَلِ أن يلقى في يومٍ من الأيام الرُّبان "بلود" ويذيقه شرّ أنواع العذاب.

اشتدت وطأة الكولونل "بيشوب" على القراصنة، ولكن بقى الرّبان "بلود" حرًّا طليقًا، يجوبُ البحر، ويُغْرِق السفن الإسبانية، ويستولي على كنوزها، ويثير الاحتجاج تلْوَ الاحتجاج بين إسبانيا وإنجلترا.

ولما ضاقت بالكولونل "بيشوب" الحيَل، وتوالى عليه كلامُ حكومته

القارص، قرَّر أن يستخدم ما تحت إمْرَته من سُفن الأسطول الإنجليزي، ويهاجم القرصان "بلود" ورجاله في عُقْر ملجئهم الأمين وهو جزيرة السُّلحفاة. فلما أحيط رئيس وزراء إنجلترا علمًا بخطَّة الكولونل "بيشوب" أرسل إليه اللورد "ويد" وفوَّضه أن يبتَّ في الأمر حسبما يرى ويقرّر، وأن يجتهد في ضم الرُّبان "بلود" إلى أسطول التّاج.

وعرّجت سفينة اللورد وكان اسمها "رويال ماري" على ميناء "القديس نقولا" في طريقها إلى "الجامايكيك".

واتّفق أنْ كانت ابنة شقيق الكولونل قد جاءت منذ أيّام إلى ذلك الميناء لتزور بعض الأهل، فطلبت إلى الرُّبان أن يسمح لها بالسفر على تلك السفينة إلى "الجامايكيك" فأجيبت إلى طلبها على الفَوْر.

وسَرَّ الفتى النبيل الأنيق اللورد "ويد" أن يجد في الآنسة "أرابلا" ابنة شقيق الكولونل "بيشوب" رفيقةً جميلة ذكية، فأخذ يبادِلُها الحديث، ويستعلم منها عمّا يريد معرفته من شئون جُزُر "الأنتيل" ويُنهي إليها ما تجهل من شئون العاصمة وشئون نساء البَلاط.

وجرّها الكلام يومًا إلى التحدُّث عن الرُّبّان "بلود" فسألها قائلاً:

- "هل عرفت يا آنسة هذا الذي يدعى "بلود" وقد كان إلى عهد قريب عَبدًا من عبيد عمِّك؟"

فصمتت "أرابلا" قليلا، ثم انحنت إلى الحاجز وقالت بصوت خافتٍ:

– "نعم عرفته ورأيته غيرَ مرَّة..."

– "وما رأيُك فيه؟"

– "إنه بائس تاعس."

– "هل تعرفين قصّته؟"

– "لقد كان رَواها لي فحزنتُ له... ثم لما انتهى إليّ ما يقوم به من أعمال القَرصنة، جزمتُ بأنه لم يصدقني الخبر فيما رواه لي."

– "صيحيحٌ أنه لم يحارب في صفوف الثُّوّار، وأنه أخذَ بشبهة ضعيفة، وكيفما كان الأمرُ، فقد استعاض عمّا لحِقَ به من ظُلم، بثروةٍ ضخمةٍ نقل جانبًا كبيرًا منها إلى فرنسا، بمعاونة المسيو "أوجيرون" أبي خطيبته."

سكتت "أرابلا" حزينةً مفكرة ثم قالت:

– "لو صحَّ ما تقول يا سيّدي اللورد لكان هجَر القَرْصنة... فلو أنّه يحبُّ امرأةً من النساء، وكان على ما تقول من الغِنى والثراء، لما عاش في وسط الأخطار والمغامرات."

– "أنتِ على صوابٍ يا آنسة، ويدهشني أنه حتى اليوم لم يتزوَّج ابنة المسيو "أوجيرون" مع أنه قَتَلَ رجلاً بسببها!" فصاحت "أرابلا" مستنكرة:

– "أقَتَلَ رجلاً بسببها؟!"

– "نعم... قَتلَ رجلاً فرنسيًّا يُدعى "لوفسور" لأنه كان يزاحمه على حبِّ الفتاة... ولكن قيل لي إنّه قتله في مبارزةٍ شريفة..."

وازداد اضطراب "أرابلا" وامْتُقع لونُ وجهها فغيّرت مجْرى الحديث.

وفي اليوم الثّاني، قابلت سفينةٌ إسبانيّة سفينةَ اللورد، فأمطرتها بالقذائف دون ما إنذارٍ، وبدأت السفينة "رويال ماري" تَغرَقُ وتغوصُ رويدًا رويدًا في غمرات الماء. وبعد دقائق قليلة، حضر إلى سفينة اللورد ربّان السفينة الإسبانية، يتقدَّمُه "دون ميجل" فهمَّ اللورد "ويد" أن يجرّد حسامه، فتبسم "دون ميجل" وقال:

- "يستحسن يا سيدي أن تسلِّم سيفك، وتصحبني أنت والآنسة إلى سفينتي، فسفينتكم تغرقُ وستستقرُّ بعد دقائق معدودات في أعماق البحر."

فاضطُرَّ اللورد أن يُذْعِن لكلام "دون ميجل"، وكان هَدَفُ هذا أن يظفر من هاتين الرهينتين بجزيةٍ ضَخْمة.

أما بقيّةُ البحارة فقد خُيِّرُوا بين الأسر في السّفينة الإسبانيّة وبين نزول القوارب، واستسلامهم إلى مصيرهم المجهول، فآثر كلٌّ ما أراد.

وعندما تمّ التعارفُ بين الآسر والأسيرين، دهش اللورد "ويد" فقال ممتعضًا:

- "أتزعُم يا سيِّدي أنك أمير الأساطيل الإسبانية، وتتصرّف تصرُّفَ القُرْصان؟! إنك سوف تدفع غاليًا ثمن هذه الدّماء التي أرقتها، ولا إخالُك تجدُ عُذْرًا من الأعذار عندما يناقشك ملك إسبانيا الحساب."

فقال "دون ميجل" وهو يبتسم ابتسامةً صفراء:

– "ألا ترى أنّي صريحٌ في قولي وعملي؟ أفعلُ ما أفعلُ ثم أعْلمك مَنْ أنا دون مواربة ولا رياء؟! فنحنُ معشرَ الإسبانيين قومٌ صُرحاء، نضربُ ضَرْبتنا ولا نتوارى مثلكم معشرَ الإنجليز وراءَ "بلود" أو "مورجان" أو من لفَّ لفَّهما من القراصنة."

– "إن "بلود" يا سيدي ليس من رجال البحرية الإنجليزية."

– "لستُ أدري... فالمهمُّ لديّ الآن، مبلغُ الفِدْية التي سأفرضها عليك وعلى الآنسة "بيشوب"، فعمُّها الكولونل من أغنى الأغنياء، ولعلك تماثله ثروةً وغنًى."

ثم حيّا "دون ميجل" أسيريه وانصرف، فقال اللورد "ويد" للآنسة "أرابلا":

– "لقد جئت إلى جزر "الأنتيل" لأحاول أن أقضي على القرصنة، فرأيت أنّ الفرنسيّين على حق في تغاضيهم عن أعمال القراصنة وتشجيعهم على قتال هؤلاء الإسبانيي السُّفَهاء." فقالت الآنسة "أرابلا" مبتسمة:

– "لا تَخْشَ بأسًا يا سيدي اللورد، فالمال هو طَلبَةُ الرّجل وفقدانه أهون الشئون. أما هؤلاء البحّارة الذين ذهبوا ضحية الغدر والقرصنة، فليرحمهم الله، ويشمل الأحياء منهم بعطفه ورعايته."

وأمْعَنَ "دون ميجل" في إكرام أسيريه، وخصّص بكلٍّ منهما غرفةً واسعةً جميلة الرِّياش، وسمح لهما بالسِّير في أنحاء السّفينة، ورج منهما أن يشاطروه الطعام في الغرفة الكبرى.

وفي صباح اليوم التّالي، استيقظ اللورد "ويد" مبكّرًا، فخرج إلى سطح السَّفينة يستنشق الهواء النقيّ الصّافي، فوجد الآنسة "أرابلا" قد سبقته إلى ذلك السطح لتستنشق هى أيضًا الهواء النقيّ الصافي، بعد الحوادث الأليمة التي شهدتها يوم أمس. وتبادل اللورد والفتاة التحيَّة، وأخذا يتجاذَبان أطراف الحديث في مختلف الشئون، فلاحت لأعينهما في الأفق أشرعةُ سفينةٍ قادمة إليهما، ثم رأياها بعد نحو ساعة تكاد تقترب من سفينة "دون ميجل" كأنها تريد أن تشن عليها الغارة.

وحدَّقت "أرابلا" في هذه السّفينة المقبلة عليهم، فعرفت في أشرعتها البيض، وهيكلها الأحمر، أنّها السّفينة التي كانت تسمّى فيما مضى "سنكو لاجاس" ولكنها لم تعرف أن اسمها قد تغير إلى "أرابلا" وأنها سفينة الرُّبّان "بلود". والتفتت الآنسة "أرابلا" حولها فرأت "دون ميجل" مسرورًا مغتبطًا، فقد كان ينتظر أن تقترب منه تلك السفينة ليستولي عليها ويمثل بربانها أشنع تمثيل، بعد أن بحث عنه طويلاً وهداه القدرُ إليه... كان يمنِّي النّفس بأنه سينتقم بعد لحظاتٍ من عدوّه اللدود الربّان "بلود".

وبدا "لدون ميجل" أن السفينة القادمة أصبحت في متناول قذائفه، فأمر بإطلاق النّار، فانطلقت القذائف تسبقها ألسنة اللهَب، وانعقدت سحبُ الدُّخان الكثيف بين السفينتين، وتابعت مدافع "دون ميجل"

إطلاق النّار، فما شكّت الآنسة "أرابلا" واللورد "ويد" أنّ الدّخان سينجلي عن سفينة محطّمة تبتلعها الأمواج.

ولقد أدهشهما وأدهش "دون ميجل" أيضًا أن السفينة لم تدافع عن نفسها فما انطلقت منها قذيفةٌ واحدة، ولكن ما كاد هؤلاء الثلاثة يفكِّرون مثل ذلك التفكير حتى دوّت في الفضاء أصواتُ القذائف، وانصبَّتْ على مقدّمة سفينة "دون ميجل" فأحدثت فيها الثَّغَرات وأمالتها، فلن ينقضي وقت طويل حتى تستقر في قَعْر البحر.

وكانت الخُطَّة التي اتبعتها تلك السفينةَ الجريئة، أنها حين أصبحت على مرمى القذائف من سفينة "دون ميجل" غيَّرت موقفها في الحال، واتجهت غربًا تحت ستار الدُّخان، وخَطَّت في سيرها دائرة كبيرة فوصلت إلى وراء سفينة "دون ميجل" فصبَّتْ عليها نيرانها.

وما إن يخرج "دون ميجل" واللورد "ويد" والآنسة "أرابلا" من ملجئهم، حتى يباغَتوا بالسَّفينة الهاجمة تقترب من سفينتهم الغارقة فلمّا كادت تلتصق بها، هجم منها الرجال يتقدمهم قائدهم ولم يكن إلا الرُّبّان "بلود". اقترب "بلود" من "دون ميجل" وقال له:

– "ها إنّ الأقدار تجمعنا ثانية يا سيدي الأميرال!"

– "وماذا تريد مني أيُّها الرجل؟!"

– " لا شئ يا سيّدي الأميرال سوى أن تركب القوارب أنت ومَنْ



يشاء من رجالك، وتنجوا بأنفسكم قبل أن تغرق سفينتكم... وإن شئت أن تستمع لنصحي فكفَّ عن ملاحقتي، وعُدْ إلى إسبانيا واشغل نفسك بأشياء أُخر غير قيادة السُّفُن..." فرماه "دون ميجل" بنظرات كلُّها حقد وضغينة، واستدار على عَقِبَيْه، ونزل من السفينة إلى بعض القوارب.

وهَمَّ "بلود" بالعودة إلى سفينته فسمع صوتًا يقول له:

– "ما أظنُّك ستترك هذا المجرم يذهب آمنًا مطمئنًّا؟!"

فالتفت "بلود" إلى مصدر الصوت، فرأى اللورد "ويد" وإلى جواره الآنسة "أرابلا" فوقف جامدًا هنيهة، كأنه يراهما لأول مرة ثمّ قال:

– "وما شأنك أنت يا سيدي؟! ومن تكون؟"

– "أنا اللورد "جوليان ويد" ثم قصّ اللورد على "بلود" قصة السّفينة "رويال ماري" فقال "بلود":

– "إذن أسرك في صحبة الآنسة "بيشوب"!" فصاح اللورد مدهوشًا:

– "أتعرف أنت الآنسة "بيشوب" فخطا "بلود" خطوتين وانحنى أمام الآنسة ثمّ تابع كلامه يردّ على اللورد بصوت خافت:

– "كان لي شرف معرفتها فيما مضى، ولكن يلوح لي أن الآنسة ضعيفة الذّاكرة، فيخيَّل إليّ أنها لا تعرفني!!" فقالت "أرابلا":

– "أنا لا أعُدُّ القراصنة واللُّصوص في عداد أصدقائي يا ربّان "بلود"!"

فوثب اللورد "ويد" من مكانه وصاح:

– "الرُّبان "بلود"... أأنت الربان "بلود" ؟!"

فقال "بلود" بلهجة حزينة ساخرة:

– "ومَنْ أكون إذن سوى ذلك القُرصان اللّص؟! وكيفما كان الأمر فتفضَّلْ يا سيدي غير مأمور وأوْصِل الآنسة "بيشوب" إلى سفينتي قبل أن تغرق هذه السّفينة أو نغرقها." وتركهما وانصرف.

ولما انبثق الفجر في اليوم التالي، كان اللورد "ويد" والآنسة "أرابلا" يتمشّيان على سطح السفينة فقال اللورد:

– "لماذا تكرهين هذا الرجل يا آنسة بعد إذ أنقذنا من الموت؟ إنِّي أراه رجلاً كاملَ الصِّفات يستحقُّ كلَّ تجلَّةٍ وتوقير..."

– "ولماذا لا تحمل قريبك رئيس الوزراء على ضّمِّه إلى البحرية الإنجليزية؟!"

– "لقد فعلتُ هذا يا آنسة، وإني لأحمل أمر التعيين في جيبي."

ثمّ شرح لها المهمة التي أوفد من أجلها إلى جزر "الأنتيل" وهي أن يسعى في لقاء الرُّبّان "بلود" وَحَمْلِهِ على هجر القرصنة، والانضمام إلى البحريّة الإنجليزيّة، بعد أن يَعِدَه بالعفو عنه وعن رجاله.

ومَرّ الرُّبّان "بلود" في هذه اللحظة بضيفيه، فهرع إليه اللورد، وطلب منه أن يكون صديقه، وذكر له المهمة التي جاء من أجلها إلى جزر "الأنتيل" فقال "بلود" على مسمع من الآنسة "أرابلا":

– "وعلامَ تريد يا سيّدي أن تكون صديقًا لقرصان لص؟ أتظنّ أنّني أقبلُ أن أنخرط في خدمة الملك جاك، بعد الذي لقيته في عهده من ظلم وغدر؟ مَنْ جعلني قرصانًا؟ مَنْ حكم عليّ بالعبودية، من أجل ثائرٍ جريح، أسعفته دون أن يكون لي في الثورة أثرٌ ولا شأن؟ عذرًا يا سيِّدي اللورد إذا كان هذا القرصان اللصّ يرفض طلبك وطلب مَنْ أوفدك إليه!" وانصرف "بلود" وقد كادت سَوْرة الغضب تفعلُ في نفسه فعلها، فنظر اللورد إلى الآنسة "أرابلا" وقال:

– "يخيّلُ إليّ يا آنسة أن كلماتك قد آلمته وجرحت عزته وكرامته، ولست أدري لماذا تكرهين هذا الرجل، في حين أنه يعرِّض نفسه لأشدّ الأخطار في سبيل سلامتنا." فقالت الآنسة "أرابلا":

– "وكيف ذلك؟"

– "إنه سائر بسفينته إلى "الجامابيك" حيث يجتمع الأسطول الإنجليزي تحت إمرة عمّك..." فصاحت "أرابلا":

– "إن عمله هذا هو الجنون بعينه، ولعله لا يدري..."

فقاطعها اللورد وقال:

– "إنه يدري بكل شئ، ولكنه كريم النّفس إلى أبعد حُدود الكرم." فقالت "أرابلا" مغمغمة آسفة:

– "ولكنّه عاش هذه السنوات الثلاث عيشةَ القراصنة واللُّصوص..."



١٠

كانت السفينة "أرابلا" في صباح اليوم التّالي على مقربة من "الجامايك" فاستدعى "بلود" كلاًّ من اللورد والآنسة "أرابلا" وقال لهما :

– "لقد اقتربت كثيرًا من الشاطئ رجاَ أن تصلا إلى حيثُ تقصدان في أمْن وسلامة، فأرجو أن تستعدّا للنزول، فإني سوف أرفع راية التسليم قبل أن تقذفنا هذه السّفن الثلاث من أسطول "الجامايك" إلى أعماق البحار."

ولم يكد "بلود" يتمّ كلامه، حتى أخذت إحدى تلك السّفن تواصل إطلاق القذائف على السَّفينة "ارابلا".

وأمرَ "بلود" برفع راية التّسليم، فأقبل عليه رجاله ومعاونوه ثائرين

محتجِّين، مُؤْثرين أن يموتوا في المعركة بدلاً من أن يسلموا أعناقهم لحبال المشانق، واتهموه بأنه يغدر بهم في سبيل امرأة هى الآنسة "أرابلا"، فلابدّ إذن من أخذها رهينةً حتى تَسلمَ أعناقهم.

وأفهم "بلود" أعوانه أنه هو الوحيد الذي سيسلم نفسه، وأنّ الكولونل "بيشوب" وهو أعرفُ الناس به، سيسمح للسفينة بالاستمرار في سيرها بمن فيها إذا وثق بالقبض عليه.

ولم يستطع "بلود" إقناع أعوانه ورجاله، فنشبتْ بينه وبينهم ثورةٌ عنيفة، فكظم "بلود" غيظه، وحاول غيرَ مرةٍ أن يبطش بمن يقترب منه مهدّدًا متوعِّدًا، ولكنه كان يعود عن عزمه ومحاولته، ولم يكن في جانبه إلا صديقه الفتى "بت".

ولمع فجأةً في خاطره بريقٌ خاطف، فنادى بالرجال والأعوان وقال:

– "ستنجون جميعًا... استمعوا إليّ قيلاً... لقد كان ضيفنا اللورد "ويد" قد عرض عليّ باسم رئيس الحكومة وباسم الملك أن ننضم إلى البحرية، وننخرط في خدمة الملك والدولة، فرفضت بإباء وشَمَم... على أنَّني الآن أقبل ذلك العرض، فمن شاء منكم أن يتبعني فليتبعني، ومن شاء منكم أن يبقى حرًّا طليقًا فليفعل مشمولاً بالعفو... ذلك وعد اللورد ونحن نقبل به."

وسَرَّ اللورد أن تنتهي مهمته على هذا النحو الجميل، فأيّد الرُّبّان

"بلود" في كلامه، وخَفَّ إلى مخدعه ليأتي ببراءات العفو، ويسجل فيها أسماء المستسلمين، فقد كان رئيس الوزراء زوّده بعددٍ منها ممهورة بتوقيع الملك، وهدأت الثورة.

ودخلت السفينة ميناء "بور رويال" وجاء أحد الضباط مُوفدًا من قبل الكولونل "بيشوب" ليستولي على السّفينة ومن فيها، ففوجئ ببراءات العفو وبوجود اللورد "ويد"، فعاد أدراجه خائبًا خاسئًا، وذهب يرفع الأمر إلى الكولونل. وقبل أن يغادر ذلك الضابط السفينة، كلّفه "بلود" أن يصحب الآنسة "أرابلا" ويوصلها إلى عمها الكولونل. أما اللورد "ويد" فقد آثر أن يبقى في السفينة.

ومضى على استسلام الرُّبّان "بلود" نحو أسبوعين، والأقدار لاتفتأ تعاكسه وتضايقه، فقد عزّ على الكولونل "بيشوب" أن ينتهي الأمر بهذه الخاتمة الحميدة، وهو الذي كان يعلِّل النَّفس بالقبض على الرُّبَّان "بلود" والتنكيل به، فكان يتفنّن في اختراع كل سبب، واستنباط كلّ حيلة، ليجرّد "بلود" من براءة العفو عنه، غير أن اللورد "ويد" كان للكولونل بالمرصاد ففوّت عليه مقاصده. وبينما كان "بلود" في صباح يوم من الأيام مستلقيًا إلى فراشه على ظهر السفينة "أرابلا"، إذ جاءه رسولٌ من قِبَل الكولونل يدعوه إلى مقابلته، فلما علم "بت" بالأمر حاول أن يقنعه بألاَّ يذهب، فتبسم "بلود" ابتسامةً حزينة وقال:

– "لا مناصَ من الذهاب يا عزيز "بت" أتريدنا أن نتمرّد ثانية ونشقّ عصا الطاعة، في حين أن سفينتنا أسيرة سجينة في هذا الميناء، ورجالنا جميعهم قد هجرونا إلاّ نفَرًا قليلاً بقى معنا؟... إني ذاهب إلى لقاء هذا الكولونل الوَحْش، ولكن اطمئنَّ بالاً فلن يفترسني بالسهولة التي يحلم بها. وإني أعدُك بالعودة إلى السَّفينة قبل الظهر.

وذهب "بلود" إلى لقاء الكولونل، فاستأذن له في الدُّخول، فدخل ولقى عنده اللورد "ويد" فنهض هذا واقفًا، وحيا "بلود" تحيةً جميلة. أما الكولونل فبقى جالسًا وراء مكتبه وقال:

– "لقد طال انتظاري إياك إيها الرجل... وعلى كلٍّ فقد استدعيتك لأتحقَّق منك عن أشياء بلغتني أمس وأدهشتني."

– "إني مستعد أن أزوِّدك يا سيدي بما عندي من أخبار!"

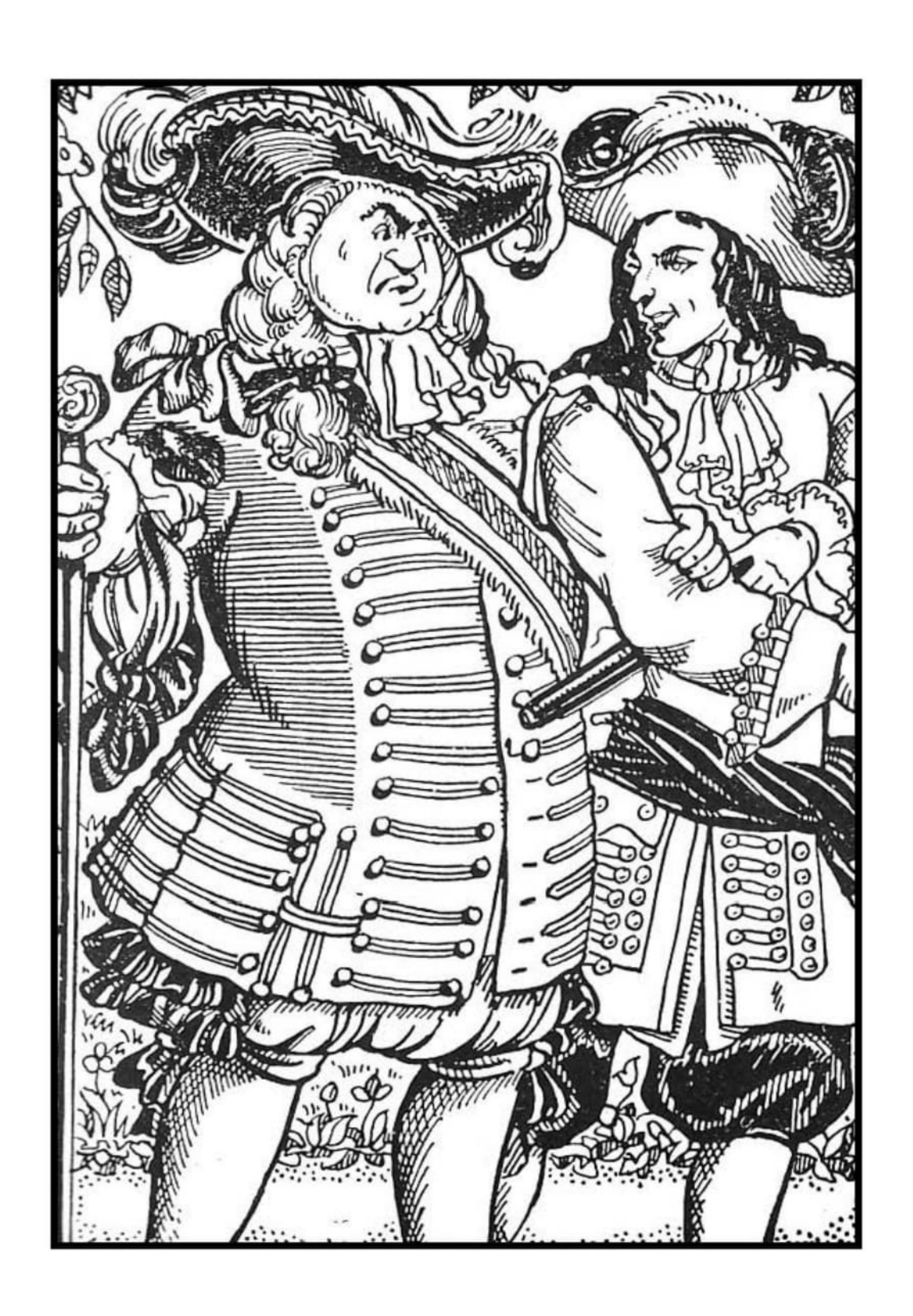
– "لقد غادرت الميناءَ أمسِ سفينةٌ تحمل مئة قُرصان ممن كانوا تحت إمرتك، فماذا صرَّحتَ لهم بالسفر؟"

– "أنا لم أصرِّح لهم بالسفر بل أمَرْتُهم به!"

فاستولت الدهشة على كل من الكولونل واللورد، وتابع "بلود" كلامه:

– "أمرتهم بالذِّهاب إلى جزيرة السُّلحفاة، ليخبروا رفقائي المتفرقين فوق بقيّة أسطولي بأني لن أعود إليهم." فقال الكولونل وقد احمر وجهه واحتقن:

– "أتسمعُ يا سيّدي اللورد؟ إن هذا العمل هو الخيانة العُظمى



بعينها، ولستُ أدري كيف أقدمتَ يا سيدي على مَنحِه براءة العفو وإنقاذه من المِشْنقة." فقال "بلود" وقد بدأ ينفَدُ صبره:

- "ذهب هؤلاء الرجال إلى رفقائهم، وهم ممن أبى أن ينخرط في خدمة الملك "جاك"، ولعل سيدي اللورد يتذكر أننا استسلمنا مشترطين أن يكون الفردُ منا حرًّا في اختيار الوجهة التي يؤثرها." فقال اللورد في خَطَرٍ ووقار:

- "أجَلْ أذكرُ ذلك، ولعلِّي كنتُ مخطئًا في قبول هذا الشرط."

فقال "بلود" حانقًا:

- "كلاّ يا سيدي لم تكن مخطئًا... إنما الخطأ أن يعيَّنَ مثل هذا الكولونل المغرم بشنْق العبيد في منصب حاكم "الجامايكا" بدلاً من تعيينه في منصب الجلاّد!"

فاحتجَّ اللورد على هذا الكلام، ونهض الكولونل مُغضبًا مهدِّدًا وقال:

- "لئن ظفرتَ بعفو الملك، إنك لن تنجو من المحكمة العسكرية التي ستحكم عليك بالشنق، لإغرائك الرِّجال بهجر خدمة الملك..." فالتفت "بلود" إلى اللورد "ويد" وقال:

- "لقد وعدتني يا سيدي بأن تجنِّبني المشْنقة." فقال اللورد:

- "أجلْ، ولكنَّ وعدي أصبح صَعبَ التحقيق بعد هذه التّهْمة الجديدة الموجّهة إليك."

وحَيّا اللورد الرجلين وغادر الحجرة، وهمّ "بلود" بأن ينصرف هو

أيضًا، فقال الكولونل ضاحكًا ساخرًا:

– "هيهاتَ هيهات! فلن تغادر هذه الحجرة وأنت طليق السّراح فسوف يُقْبَض عليك حالما تتخطَّى عتبة الباب.."

وجرى الكولونل إلى الباب، ولكنّه ما كاد يخطو خطوةً واحدة حتى توقف مذعورًا، فقد صوّب إليه "بلود" غدّارته، وأنذره ليُفْرِغَنَّ نيرانها في أحشائه إذا هو لم يذعن لما يطلبه منه، فهز الكولونل رأسه طائعًا مجيبًا.

وتأبط "بلود" ذراع الكولونل، وأخفى الغدارة تحت ردائه، وطلب إليه أن يخرجا معًا ويوصله إلى سفينته، وتوعّده بالقتل إن هو استنجد بأحد أو استغاث، فأذعن الكولونل لمشيئة "بلود" مُكرهًا صاغرًا، ولشدّ ما دهش ضابط القلعة المكلَّف بالقبض على "بلود" عندما رآه قد خرج يتأبّط ذراع الكولونل ويبادله النكات والضحك.

وكانت الآنسة "أرابلا" في فناء القلعة، فرأت عمّها و "بلود" مصطحبين، فخفق قلبها سرورًا، وودت لو تعترض سبيل "بلود" وتعتذر إليه عما فرط منها، وعن الجفوة التي قابلته بها، فقد عرفت أمسِ من بعض البحّارة الذين حدّثتهم أن "بلود" لم يقتل "لوفسُّور" إلا دفاعًا عن النَّفْس، وإنقاذًا للفتاة "أوجيرون" وشقيقها.

ولم يكن حاكم الميناء بأقل دهشة لما رأى أن الكولونل قد ركب هو و"بلود" أحد القوارب، وسارا به إلى سفينة "بلود" فصَعِدا إليها وأبحرت السفينة بعد قليل وعلى ظهرها الكولونل...



١١

ابتعدت السّفينة عن الميناء، وأصبحت على بُعد خمسة أميال أو ستّة، فوقفها "بلود" قليلاً، وأنزل منها زورقًا إلى الماء، وأقبل على الكولونل يودّعه ويأمره بالنزول إلى الزورق والعودة إلى الميناء، فتنفس الكولونل الصُّعَداء وقد كان عُرْضَةً للهواجس والخوف.

فلما استقر في الزّورق، حيّاه "بلود" وتمنى له عودةً حميدة وقال له:

– "هذه هي المرّة الثانية التي أضطّر فيها يا سيّدي الكولونل، إلى استخدامك رهينةً تدرأ عني الأخطار، فحذار من المرة الثالثة، فقد تكون وخيمة العاقبة عليك!"

وفي إبّان هذه الحوادث، كانت أوربّا ميدانًا للحروب التي شنّتها

مطامع "لويس الرابع عشر"، وكانت إنجلترا تعيش على فوهة بُركان وتخشى أن تندلع فيها ألسنة الحرب الأهلية، فالشعّب كان بَرِمًا ضَجِرًا بمظالم الملك "جاك الثاني".

وكانت السُّفن التي ترد على "الجامايك" تحمل إليها أخبار البلاد الأوربيّة، فعلم سكان "الجامايك" في شهر مارس عن عام ١٦٨٩ أنّ "جيوم دورانج" قد قبل عرش إنجلترا وأنّ "جاك الثاني" قد التجأ إلى فرنسا. فضاق اللورد "ويد" والكولونل عندما أبلغه الرئيس الجديد للوزارة أن إنجلترا في حرب مع فرنسا، وأنه قد عيّنَ أحد اللوردات حاكمًا عامًّا لجزر "الأنتيل"، وأن ذلك الحاكم العامّ سيصلُ قريبًا إلى تلك الجُزُر متفقّدًا مفتّشًا وسيبدأ بجزيرة "الجامايك".

فَهِمَ الكولونل أن سلطانه قد بدأ يأفل نجمه، فأخذ يترقّبُ ما تأتيه به الأيام. أما اللورد "ويد" فقد كان يجهل أيّ مصير تُخْبِئُه له الأقدار، فأخذ هو كذلك يترقب حوادث الزّمان.

وخَطرَ له في أثناء ذلك أن يتزوجّ الآنسة "أرابلا" فإنه كان شديد الإعجاب بأخلاقها وذكائها ونُبْل نفسها، فطلب يدها من عمِّها فأجابه إلى ما طلب راضيًا مسرورًا، معلِّلاً النفس بأن تعود مياه الدولة إلى مجاريها، فيستعيد شأنه وَمجْدَه، مستعينًا بجاه اللورد ونفوذِ أصدقائه.

ولقد كان اللورد صريحًا مع الكولونل عندما طلب منه يد ابنة أخيه فقد قال له في جملة ما قال:

– "ولستُ أكتمك يا سيّدي الكولونل أنه قد يكون هناك عقبة تقوم دون تحقيق هذا الزواج... تلك العقبة هى الرُّبان "بلود"."

فصاح الكولونل، في محدثه وقد كاد الغضب يخنقه:

– "ماذا تقول؟ أأنت مجنونٌ يا لورد؟!"

– "كلاّ لستُ بمجنون يا سيدي الكولونل؛ ولكن يخيّلُ إليّ أنّ ابنة شقيقك تحب الرُّبّان "بلود".

فازداد الكولونل سُخطًا وغَضبًا، كما ازداد حقدًا على "بلود" فصاح:

– "سوف أنتزع من قلبها هذا الحبّ... سوف أردها إلى الصواب."

– "إن ابنة شقيقك يا سيدي الكولونل لا يؤثر فيها العُنف والشدّة... إنها من أولئك الفتيات اللواتي يُخْلِصْنَ لمن أحببنَ كل الإخلاص، فإن لم أكن مخطئًا في ظني فسوف تنتظره ما عاشت حتى تزف إليه."

– "لعلها تلتمس وجه الصواب إذا مات هذا المجرم اللعين!"

– "لعلها!..."

– "إن هذه الحرب بيننا وبين فرنسا، تسمح لنا يا عزيزي اللورد بأن نهاجم جزيرة السُّلحفاة، فإذا انتصرنا على القراصنة، وأنزلنا بهم خسارةً فادحة، وقبضنا على "بلود" علا شأنُنا في عين الوزارة الجديدة،

واصطدنا عُصفورين بحجَر...“

وكان الواجب يقضي على الكولونل بأن لا يُغادر ”الجامايك“ غير أن نداءَ الحقد أصمه عن سماع صوت الواجب، فسار هو واللورد ”ويد“ على رأس الأسطول يبحثان سرًّا عن الرُّبان ”بلود“ ويتوخيّان في الظاهر مهاجمة المستعمرات الفرنسية.

وقبل أن يجرِّد الكولونل تلك الحملة بثلاثة أشهر، كان الرُّبان ”بلود“ قد وصل إلى جزيرة السُّلحفاة، فاستقبله إخوانُه القُرْصان بالهتاف والتهليل، فرد على تحيتهم بأحسن منها، ولكنه كان حزينًا حتى الموت، وكانت كآبة فؤاده تلوح في عينيه.

وبعد أن تبادل وإخوانه التحيات، تركهم وقصد إلى مقصورته وخلا بنفسه فيها. أما صديقه الحميم ”بت“ فقد بقي مع القرصان يَرْوِي لهم الروايات عن زعيمهم ”بلود“، ويزيّن سَرْدَه بكثير من أعمال البطولة والتمجيد، فأخفى عنهم ما شاء أن يُخفى من أمر الفتاة ”أرابلا“، وصوّر لهم قبول ”بلود“ براءة العفو، ورِضاه بالانضمام إلى البحرية الإنجليزية أمرًا أُكْرِهَ عليه ريثما ينجو بمن كان معه من الرِّفاق، وإلا فالمأزق الحرج الذي زجَّتْهم به الأقدار، ووقوعهم في قبضة الكولونل ”بيشوب“ كان حقيقًا أن ينصبَ لهم المشانق جميعًا...

خَدّرَ ”بت“ أعصاب الرِّفاق بمثل تلك الأقاويل، فازدادوا إعجابًا

بالرُّبّان "بلود" ولام كثيرٌ منهم أنفسهم على أنهم هجروا ذلك الزعيم النبيل العظيم ولم يبقوا معه. ثمّ انصرف "بت" عنهم وذهب يلقى "بلود" في مقصورته، فألْفاه يترنح من السُّكْر فدهش وقال:

– "بلود" ! ما هذا ! ما بك؟"

فقهقه "بلود" ضاحكًا وقال:

– "إنها خمر "الجامايك"، إنها ألذُّ خمر في العالم... خذ الزجاجة واكْرع منها ما شئت..."

فنحّى "بت" عنه الزجاجة وقصّ على "بلود" ما رواه للرّفاق، فشكره "بلود" وهو يتلعثم من السكر وقال:

– "وعلام كلّ هذا؟... لقد أردتَ أن تنقذني من قدْح القادحين ولكن في غير طائل، فقد عزمتُ على أن أهجر حياة القرصنة."

– "سأحدثك في هذا عندما تفيق من السُّكر، ولكن لا تنس الرواية التي رويتها للرّفاق عنك، واذكر الخطر الجسيم الذي تتعرض له لو عرفوا الحقيقة."

ومضت الأيام بعد ذلك و "بلود" مستسلمٌ إلى السُّكر، ولا يكفّ عن الشراب ليلَ نهار، فعرف "بت" أن صديقه وزعيمه يريد أن يغرق أشجانه في كؤوس الشراب، فرثى لحاله ولعن ذلك الحبّ الذي مَلكَ على "بلود" جوانحه، ورجا أن يشفي الزمان ذلك الجرح البليغ.



ودخل "بت" يومًا على "بلود" فهاله أن يراه على حال زرّية مهملةٍ في ملبسه ومظهره، فجمع شجاعته وقال له:

– "أمِنَ الصواب أن تقضي حياتك في خَلْوة قاتلة لسبب فتاة أعرضت عنك؟! لئِن كنت حقًّا تحبُّها فلماذا لا تذهب وتختطفها؟"

نهض "بلود" وكان شاحبَ اللون مُخيفَ النّظرات وقال:

– "على رِسْلِكَ يا "بت" واخرج من هذه الغرفة في الحال، وإلاّ قذفتُ بك من هذه النافذة!" فخرج "بت" حزينًا.

وضاق القرصان بتلك الحال، وصمَّموا على التمرُّد ولو أدَّى بهم الأمر إلى قتل زعيمهم الرُّبّان "بلود"، غير أن الأقدار السمحة الكريمة أنقذته منهم إنقاذًا عجيبًا.

ففي صباح أحد الأيام قدِم إلى السّفينة "أرابلا" حاكم جزيرة السُّلحفاة ومعه حاكم جزيرة "إسبنيولا" فرحّب "بلود" بصديقه المسيو "أوجيرون" وبرفيقه فقال هذا:

– "إن تحت إمرتك يا سيّدي أربع سفن وثمانمائة رجل، فهل تقبل أن تخدم ملك فرنسا في الحرب التي أعلنا على إسبانيا."

وكأنما هذا الكلام قد انتزع "بلود" من سهوه وجموده فقال:

– "أتعرضُ علينا أن نجند أنفسنا لخدمة ملك فرنسا؟"

– "نعم يا سيدي."

رضى "بلود" بذلك العرض لأنه لا يمتّ إلى القرصنة بسبب.

وبعد فترة قضاها "بلود" في الاستعداد للرحيل، أقلعت السفن به وبرفاقه، ورست في ميناء "جواف" فدعى "بلود" إلى المثول بين يدي أمير الأساطيل الفرنسية ومجلسه الحربي، فلبّى الدعوة وسار إلى المجلس يحيط به نفرٌ من أعوانه، فازدراهم أمير الأساطيل، وأنِفَ حتى من محادثتهم لما رآهم جميعًا من قذارةِ الملبس والمظهر. وعندما دعى "بلود" إلى المجلس مرة أخرى، كاد أمير الأساطيل لا يعرفه فقد رأى أمامه رجلاً متأنقًا كلَّ التأنُّقِ لابسًا أفخر الملابس والأردية من المخمل والحرير.

واشترك "بلود" مع مجلس أركان الحرب في دراسة خطة الهجوم على الإسبانيين، والاستيلاء على مدينة "قرطاجنة" على ساحل "كولومبيا" وكان صاحب الخطة الأميرال نفسه، فعارضه "بلود" وبيَّنَ له خطل ذلك الرأي وتلك الخُطَة، واقترح أن يستولى الفرنسيون أولاً على القسم الإسباني من جزيرة "إسبنيولا" ثم يذهبوا إلى مدينة "قرطاجنة" البعيدة وإلاّ فسيكون الإسبان أسْبَق إلى احتلال القسم الفرنسي من الجزيرة، فعز على الأميرال أن يعارضه "بلود" في خطته، فصمم عليها، وسارت السُّفن إلى ذلك الهدف البعيد القاصي، وبعد يومين من سفرها خرج الكولونل "بيشوب" بسُفنه يقصد جزيرة السُّلحفاة.



١٢

اضطُرّ الرُّبّان "بلود" إلى الإذعان لمشيئة الأميرال الفرنسي الذي آثَرَ أن يستولى على مدينة "قرطاجنة" وأن يجعلها هدفه الأول، فسارت سفن "بلود" الأربع إلى ذلك الهدف، تتبعها أربع سفن أخرى من الأسطول الفرنسي حتى إذا كانت جميع تلك السفن على بضعة أميالٍ من المدينة، جمع الأميرال أركان حربه، ودعا معهم الرُّبّان "بلود" وكبار معاونيه، وطلب إليهم جميعًا أن يستمعوا للخُطّة التي وضعها في احتلال المدينة وما جاورها. شرح الأميرال تلك الخُطّة فلم تعجب "بلود" فلما عُهد إليه تنفيذها صاح فيه قائلاً:

– "لقد تبعناك على كُرْهٍ منا إلى غزو هذه المدينة، في حين كانت

الحكمة تقضي بالاستيلاء على ما يملكه الإسبان من جزر، فخطتك هذه التي بينتها لنا، إنما هى مجزرة لا طائل تحتها..." فقال الأميرال محتدًّا:

- "أنت هنا يا سيد "بلود" لتسمع الأوامر وتنفذها لا لتناقشها!"

- "فعلامَ إذن ضممتني إلى مجلسك الحربي، واستوضحتني الرأي فيما تقول!"

- "كفى يا حضرة الرُّبّان... هذه أوامري إليك: تستخدم سفنك ورجالك وتستولى على المدينة من مدخل الميناء."

- "وهذه القلاع التي تحمي المدخل؟"

- "أسكتها بمدافع سفنك."

وخرج "بلود" وهو لا يدري أمجنون هذا الأميرال أم رجل يريد أن يتخلص منه ومن رجاله، فأمر بزجِّهم وزج سفنهم في أتون من النار.

وكان "بلود" يعرف مدينة "قرطاجَنَّة" ويعرف كل ما يحيط بها من مخابئ ومنعرجات، فصمم أن يستولى على المدينة هو ورجاله، ولكن بغير الخطة التي أمره الأميرال باتّباعها.

وكانت خُطّة "بلود" تقوم على أن ينزل برجاله إلى البر بعيدًا عن الميناء، ويهاجم القلاع من الخلف، فتمّ له ما أراد، وانتصر على الإسبان انتصارًا باهرًا، ومهد للأسطول الفرنسي سبيل الدخول إلى الميناء، فدخلها ظافرًا، ونزل الجند إلى المدينة فأعملوا فيها السلب والنهب والتدمير، حتى

إنّ "بلود" لم يحجم عن أن يقول للأميرال:

– "لستُ أدري يا سيدي الأميرال مَنْ منا هو القرصان، أنا وإخواني أم أنت وجنودك؟"

ولقد انجلت المعارك البحريّة التي نشبت بين الأسطول والقلاع، عن غرق بعض السفن، فلم ينج من سفن "بلود" إلا "أرابلا" وسفينة أخرى، وكذلك لم يبق إلا سفينتان من السفن الفرنسيّة الأربع.

وثارت وساوس الجشعَ في نفس الأميرال الفرنسي، فاغتنم فرصة انتشار الظلام في إحدى الليالي القاتمة وفرّ بسفينته.

وعندما طلع الصباح، وعلم "بلود" أن الأميرال قد فرّ بالكنوز التي سلبها من المدينة، قَرّ قراره على اللحاق به، فقضى يومين وليلتين يجوبُ البحار، ويبحث عن غريمه فما وَجدَ له أثرًا.

وفي اليوم الثالث حوّل "بلود" اتّجاه السير إلى جُزُر "الأنتيل" فخبّت سفينتاه إليها في أقصى سرعة تستطيعانها، وبينما كان "بلود" يتمشى فوق سطح السفينة "أرابلا" لاحت له في أقصى الأفق سفينة تضطرب في مهبّ الريح فما زال يمعن النظر إليها حتى اقترب منها فرآها سفينة إنجليزية تكاد تبتلعها الأمواج، وقد نزل منها بحارتها وركبوا قوارب النجاة، فجدّ "بلود" في الوصول إلى السفينة الغارقة، فانتشل رجالها ووزّعهم بين سفينتيه وكان بين ركابها رجلان عظيمان، أحدهما الحاكم

الجديد لجزر "الأنتيل" وثانيهما أميرال أسطولها، فلما عرفا أنّ منقذهما هو الرُّبّان "بلود" أنِسا إليه، وكانا قد سمِعا الكثير عن آيات شجاعته وبطولته، كما كانا قد عرفا أن الظُّلم والقسوة والفَوْضى هى التي دفعته إلى حياة القرصنة، فأغرياه بهجر هذه الحياة المضطربة، والانضواء تحت لواء الملك "جيّوم دورانج". سمع "بلود" هذا الاسم فدهش له وقال:

– "ومَنْ يكون هذا الملك؟" فقال الحاكم الجديد لجزر "الأنتيل":

– "إنه ملك إنجلترا الجديد، تسلّم عرشها منذ نحو شهرين فكيف لم تسمع به؟"

– "لقد قضيتُ ثلاثة أشهر أجولُ في البحار، فما وقفتُ على نبأ من أنباء أوربا."

وكان "بلود" قد عَرَف كذلك من ضيفيه، أن سفينتين فرنسيتين قد هاجمتا سفينتهما الصغيرة غير المسلّحة، فلما رأى الأميرال الفرنسي أنها خاوية الوفاض، تركها وشأنها بعد أن صَبَّ عليها ألسنة اللهب والنّار غَدْرًا وخيانة. واستأنف أحدهما الحديث وقال:

– "وأخوَف ما نخافه أن يكون هذا الأميرال الفرنسي قد اتّجه بسفينتيه الكبيرتين إلى ميناء "بور رويال" واستولى على "الجامايك"."

فقال "بلود":

– "ولكن هناك أسطول "الجامايك" فهو كفيلٌ بأن يردّه على أعقابه خاسرًا."

– "كنا أمس في ذلك الميناء، فلم نجد فيه أيّة سفينة من سفن الأسطول، وقيل لنا إن الحاكم الكولونل "بيشوب" قد ذهب بالأسطول ليغزو جزيرة السُّلحفاة الفرنسية، ولسنا ندري كيف يترك الحاكم مقرّه في مثل هذه الأيام العصيبة ويعرّض الجزيرة الكبرى للغزو، ويجرّدها من السفن التي تحميها؟" وقال رفيقه:

– "إنّه أحد صنائع الملك "جاك" فلابُدّ من عزله، بل لابد من شَنقِه وتنصيب غيره حاكمًا على "الجامايك"."

وكانت السفينتان قد اقتربتا من ميناء "بور رويال"، فلاحت الرّايات الفرنسية خفاقة على سفينتين فيه، فعلم القوم أن الميناء قد احتلّه الفرنسيون، وعرف "بلود" أن إحداهما هى سفينة الأميرال الفرنسي الذي هرب بكنوز "قرطاجنّة"، فعزم على قتاله واستخلاص المدينة من قبضته.

ولقد كان من رأي الحاكم الجديد لجزر "الأنتيل"، ورأي أميرال أسطولها، أن كفة "بلود" غير راجحة في ذلك القتال الذي يزمعه، فالسَّفينتان الفرنسيتان أضخَمُ هيكلاً، وأكثرُ عَدَدَ مدافع من سفينتي "بلود"، وكان من رأيهما أيضًا أن يتريَّثَا حتى يلتقيا بأسطول "الجامايك" فيستطيعا عندئذ القضاء على السفينتين الفرنسيتين قضاءً مُبْرَمًا.

ولكن "بلود" رأى غير هذا الرأي، وأبدَى للرجلين أن المعارك

البحرية لا تقومُ على وفرة المدافع فقط، وأن بينه وبين ذلك الأميرال الفرنسي حسابًا يجب أن يسوِّيه.

ونشط "بلود" إلى أعوانه، فأنهى إليهم ما أراد أن ينهي من أوامر ونصائح، وقاد سفينته إلى الميناء، وخفَّت السفينتان الفرنسيتان إلى استقباله وهما تُطْلِقان قذائف النار والحديد، ونَشِبتْ بين السفن الأربع معركةٌ هائلة تُشيبُ لهولها الولدان، وأظهر "بلود" من البراعة في القتال وقيادة الرِّجال ما أدهش ضيفيه العظيمين، ولا سيَّما عندما التحمت السُّفن، ووثب "بلود" ورجاله إلى الأعداء يُعمِلون فيهم الطَّعْن والضَّرْب.

وانجلت المعركة عن انتصارٍ باهرٍ أحرزه "بلود" ورجاله، فأعادوا الجزيرة إلى أصحابها، وأنزلوا الرايات الفرنسية التي كانت تخفق فوق المباني والمنْشآت، وقدّم "بلود" إلى حاكم جزر "الأنتيل" كل ما كان في السفينتين الفرنسيتين من كنوز وأموال، وقال إنه يَعُدُّ نفسه ويعُدُّ رجاله في خدمة الملك "جيُّوم دورانج" ملك إنجلترا، فهذه الأسْلابُ إنما هى ملك الدولة.

ونزل الرجلان العظيمان إلى البرّ، وأشارا إلى "بلود" أن يصحبهما في نَفرٍ من كبار أعوانه إلى قصر حاكم المدينة، فلما وصلت تلك الكوكبة من الرِّجال إلى رصيف الميناء، التفت "بلود" إلى جهة البحر، ومَسَح دمعتين كبيرتين انْسكَبتا على خده... ذلك أنه رأى سفينته المحبوبة

"أرابلا" قد غاصت في أعماق البحر، بعد العَطَب الذي أصيبتْ به في المعركة. وشاء حاكم جزر "الأنتيل" أن يكافئ "بلود" على شجاعته وإخلاصه، فعينه حاكمًا على "الجامايك"، فتردَّد "بلود" أوّلاً في القَبُول، ثم أذعن في آخر الأمر.

وشاء حاكم جزر "الأنتيل" أن يكافئ أيضًا رجال "بلود" فأعطاهم عُشْرَ الأسلاب التي استولوا عليها من السفينتين الفرنسيتين، وخيّرهم بين الانضمام إلى البحريّة الإنجليزيّة، أو الإقامة حيث يشاؤون، فانضمُّوا كلّهم إلى البحرية.

ولما كالت غيبةُ أسطول "الأنتيل" استَقَلّ أميرال ذلك الأسطول السفينة الوحيدة الباقية من سفن "بلود"، ومضى هو والحاكم العام الجديد يزوران جزر "الأنتيل" ويتفقّدان أحوالها، وأطلقا يد "بلود" في أمر الكولونل "بيشوب" حاكم "الجامايك" المخلوع، فإن شاء شَنَقَهُ، وإن شاء أغْضَى عنه. وذاع في جميع أنحاء المدينة أمْر خلعِ الكولونل، فشَمِتَ به الشّامتون، واغتبط المغتبطون.

وبينما كان حاكم "الجامايك" الجديد أي الرُّبان "بلود" في مكتبه ذات يوم وهو يُصَرِّف أمورَ الجزيرة، إذ دخل عليه الحاجبُ وأخبره أن الآنسة "أرابلا بيشوب" تستأذن في الدُّخول، فاصفرّ وجه "بلود" قليلاً وحَدّق طويلاً في وجه حاجبه الأسود صامتًا ساكنًا، ثمّ هز رأسه

علامةَ السّماح لها بالدّخول.

وما هى إلا ثوان معدودات، حتى كانت الآنسة "أرابلا" تتخطّى عتبة الباب، وتدخل إلى مكتب حاكم "الجامايك" الجديد، وهى ممتقعةُ اللون، مضطربةُ الفؤاد، فنهض "بلود" إلى استقبالها فقالت له:

- "علمتُ يا سيّدي الحاكم أن مصير عمّي الكولونل "بيشوب قد وضع في يديك..."

- "اطمئني بالاً يا آنسة، فمهما أساءَ إليّ عمك فلن أحذو حَذْوَه، إن الحاكم العام يريدني أن أقسو في معاملته، ولكنني سأكتفي بأن أرسله إلى مزارعه، وأطلب إليه أن يُحسن معاملة عُماله وعبيده..."

فتهلّل وجه "أرابلا"، وخطت خطوتين إلى "بلود" وقالت:

- "يسرُّني أن أسمعك تتحدث بمثل هذا الحديث، وأن أراك في المنصب الذي أنت له أهْل." ومدّت إليه يدَها محيِّية فقال:

- "هل لي أن أضع هذه اليد الكريمة في يد قرصانٍ ولصّ؟"

فحاولت أن تبتسم وقالت:

- "ما عُدْتَ بالقرصان ولا اللّص... ولكن ألن تَنْسى هذه العبارة؟"

- "ليس في مقدوري نسيانُها ولعلّ الأيَّام..."

فنظرت إليه طويلاً، ثم مدت يدها ثانية لتصافحه وقالت:

- "إنّس راحلة يا سيدي الحاكم "بلود" وساصحب عمي إلى مزارعه،

ولعلّنا لن نلتقي بعد اليوم، فنفترق صديقين... لقد أسأت فيك الظنّ فعذرًا جميلاً..."

وكان "بلود" ساهمًا واجمًا كمن أفاق من حلم، فأمسك بتلك اليد المبسوطة إليه وقال:

- "وهل يصحبك اللورد "ويد" إلى مزارع عمّك؟"

فقالت في لهجة حازمة:

- "أغلب الظنّ أن اللورد سيعود إلى إنجلترا، فما من سببٍ يدعوه إلى البقاء معنا في هذه الديّار."

وأحسّ "بلود" بأن قلبه سيَثِبُ من صدره فرحًا وسرورًا، وسحبت "أرابلا" يدها من يده وقالت وهي تتجه إلى الباب:

- "أستودعك الله يا سيّدي الحاكم!"

وكان "بلود" أسرع إلى الباب منها، وقد فتح ذراعيه ليضمها إلى صدره، فاحمر وجهها وقالت:

- "طريقة قرصان... دعني يا سيّدي أخرج."

- " "أرابلا" أحقًّا تردين أن أدعك تنصرفين، وأن لا نتقابل أبدًا بعد اليوم؟ إنّ بقائي في هذه البلاد لن يحلو لي إلا إذا كنت إلى جانبي... ولكن لماذا تبكين يا عزيزتي "أرابلا"؟ بماذا أسأت إليك؟"

- "ظننتُ أنك لن تفصح لي في يوم من الأيام عن حبّك؟"

- "ذلك أني علمتُ أن اللورد "لويد" قد خطبك إلى عمّك."
- "ما عرفتُ إلاّك حبيبًا يا "بلود". "

وفي تلك اللحظة كان الكولونل "بيشوب" قد عاد بأسطول "الأنتيل" فلم يكَدْ ينزلُ من سفينته بصحبة اللورد "ويد" ويستقل معه الزورق، ويصل إلى الرصيف، حتى تقدّم منه أحد الضباط وقال له:

- "يا سيدي الكولونل "بيشوب" ! باسم الدولة أقبض عليك!"

فاحتقن وجه الكولونل وصاح في الضابط:

- "أتقبضُ عليّ أنا؟!"
- "بأمر حاكم "الجامايك!"
- "أمجنونٌ أنت يا هذا؟ أنا حاكم "الجامايك" !"
- "كنتَ حاكم "الجامايك"... ولكن الحاكم العام لجزر "الأنتيل" وقد رَحلَ منذ قريب يتفقد الجُزُر، قد عاب عليك غيابَك عن المدينة في هذا الوقت فخلعك من منصبك، وربما اتهمك بالخيانة العظمى لأنك من أعوان الملك "جاك" فلن يكون مصيرُك بعد ذلك غير الشنْق..."

فقال الكولونل وقد بدأ العرق البارد يتصبب من جبينه:

- "أأُتّهم بالخيانة العظمى وأشْنَق؟!" فقال الضابط:
- "أجلْ يا سيدي الكولونل. ألم تعرف أنّ الملك "جاك" قد هرب من إنجلترا والتجأ إلى فرنسا؟! أما علمتَ أن الملك "جيُّوم دورانج"

هو الذي استوى على عرش إنجلترا؟! أوَ ما بلّغك رئيس الوزراء بكلّ ذلك، وأنْهَى إليك أن الحاكم العام الجديد لجزر "الأنتيل" سوف يصلُ إلينا عما قريب، متفقدًا للجزر وأحوالها، فلم تحفِل به وذهبتَ بالأسطول تتصيَّد الهباء المنثور، ثم عُدْتَ مخفقًا فارغ اليدين، فإن لم يكن هذا هو الخيانة العظمى فماذا يكون؟!"

وكان اللورد "ويد" قد لزم الصمت حتى تلك الساعة، فاقترب من الضّابط وقال:

– "أمعك أمرٌ باعتقالي أنا أيضًا يا سيدي الضّابط؟ إني رهن إشارتك."

فقال الضابط:

– "كلا يا سيدي اللورد فأنت حرٌ طليق."

ثم التفت الضابط إلى الكولونل وقال:

– "هل يتفضل سيدي الكولونل فيتبعني إلى قصر الحاكم، فهو صاحب القول الفصل في مصيرك."

فودّع الكولونل صديقه اللورد، ومشى صاغرًا إلى قصر الحاكم، وكان "بلود" في تلك الساعة جالسًا في مكتبه إلى "أرابلا" مستغرقًا معها في حديث شَهِيٍّ مُمْتع، استعرضا فيه حياتهما في سنوات ثلاثٍ مرَّت عليهما مملوءةً بالحوادث الجِسام، وتذكرا في ذلك الحديث كيف نشأ حبُّهما ونما وترعرع.



وصحا الحبيبان من غَفْوتهما اللذيذة على صوت الحاجب يُعلن وصول الكولونل "بيشوب"، فنهضت "أرابلا" ومشتْ إلى الباب المفضي إلى الحديقة وخرجت منه وهى تقول:

- "كنْ رفيقًا به ورحيمًا يا عزيزي "بلود"."

وأذِن "بلود" للكولونل "بيشوب" بالدُّخول، فدخل وحده يتقدَّم رجلاً ويؤخِّر أخرى، وهو مطأطئ الرأس مضطربَ الجنان، حتى إذا صار في وسط الغرفة، رفع رأسه لينظر إلى الحاكم الجديد مستعطِفًا متذلِّلاً، فما كاد يراه حتى تراجع مذعورًا مدهوشًا وهو يصيح:

- "الرُّبّان "بلود" !!"

وحانتْ منه التفاتةٌ إلى الباب المؤدِّي إلى الحديقة فرآه قد فُتح ودخلتْ منه ابنةُ أخيه "أرابلا" بسَّامة الثَّغْر والعينين، فكاد يُصعَق ويُقضى عليه من الدهَش...

رقم الإيداع		١٩٩٢ / ٨٥٩٦
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3839 – 2	ISBN

١ / ٩٢ / ١٨١
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

